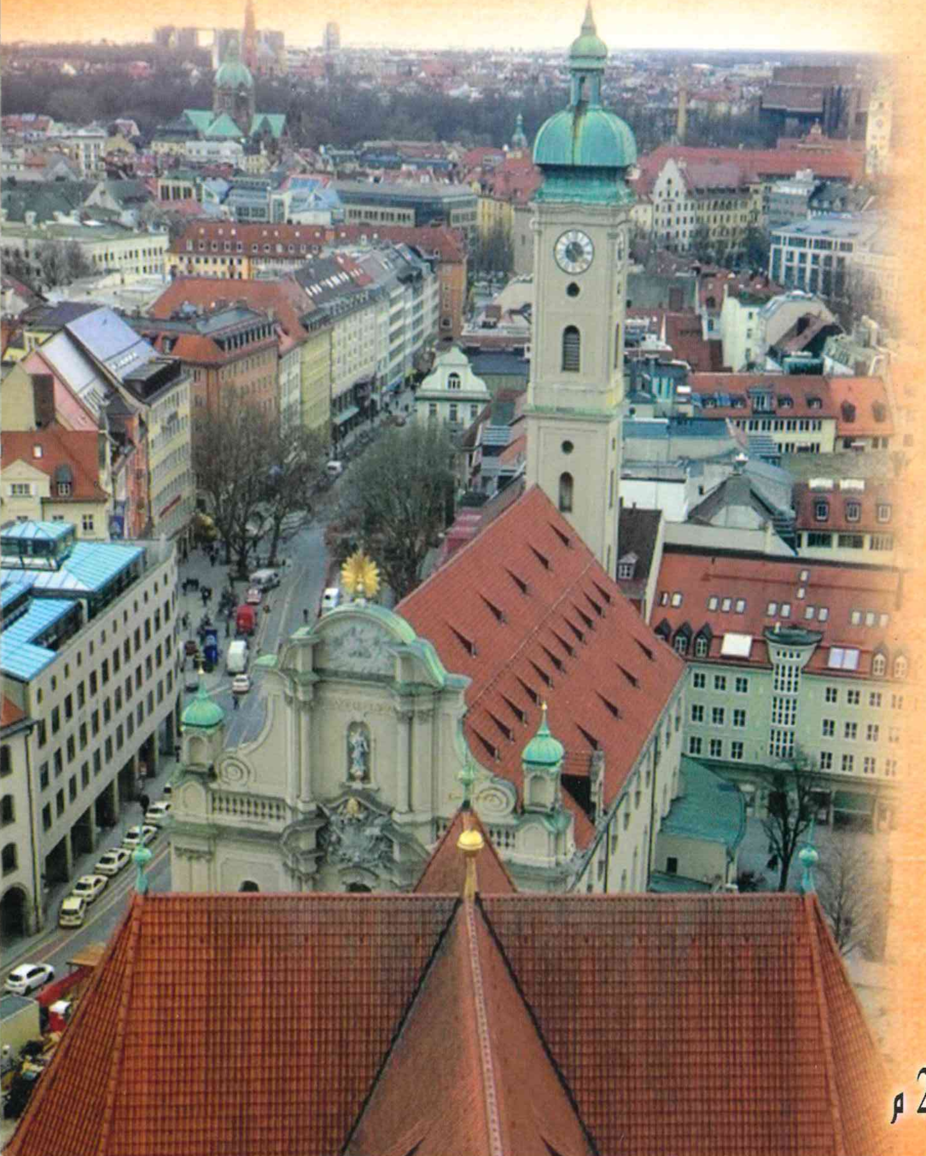
المسلمون في بلاد الغرب

(غربة، معاناة، وذوبان)

د. عبد الله الشارف

كلية أصول الدين تطوان - المغرب



1437 هـ - 2016 م

المسلمون في بلاد الغرب

(غربة، معاناة، وذوبان)

د. عبد الله الشارف

أستاذ الفكر الإسلامي والفلسفة

كلية أصول الدين

تطوان - المغرب

2016-1437

الكتاب: المسلمون في بلاد الغرب

«غربة، معاناة، وذوبان»

المؤلف: د. عبد الله الشارف

الطبع: مطبعة تطوان - تطوان

الطبعة: ربيع الأول 1437 هـ يناير 2016

الهاتف: 34 42 70 539 (212+)

البريد الالكتروني: imp.tetouan@gmail.com

رقم الايداع القانوني الوطني: 2016Mo0117

ردمك: 978-9954-36-915-9



مقدمة

الهجرة ظاهرة اجتماعية قديمة قدم الإنسان، ولها دواعي وأسباب كثيرة ومختلفة؛ اقتصادية، وسياسية، وجغرافية، ودينية، وثقافية، وحضارية. بيد أن هذه الظاهرة في زمننا المعاصر، أخذت شكلا لم يكن معهودا في الأزمنة الماضية أو الغابرة. ذلك أن النظام الرأسمالي العالمي، يملك من القوة والجاذبية والإغراء، ما جعل ملايين البشر يغادرون أوطانهم، متجهين نحو المدن الغنية في أوربا وأمريكا وأستراليا. فانطلاقا من الفترة الاستعمارية وإلى الآن، لم يعرف العالم توقفا لنمو واطراد هذه الظاهرة الاجتماعية والإنسانية.

وغني عن البيان أن الدول التي ينطلق منها هؤلاء المهاجرون، تكون إما ضعيفة اقتصاديا ومتخلفة ثقافيا وتكنولوجيا، أو وضعها السياسي مضطرب، أو ما أشبه ذلك من العوامل المشجعة على الهجرة.

والمهاجرون أنواع وطبقات، لكن أغلبهم عمال لا يملكون إلا سواعدهم، وهم الحرفيون، ثم التجار، ثم أصحاب الشهادات العليا من أطباء ومهندسين وأساتذة... والذين يصطلح على هجرتهم ب"هجرة الأدمغة".

ولقد أخطأ من ظن أن إقامة المهاجر في الغرب تتسم دائما بالأمن والسعادة، خاصة إذا كان المهاجر من ذوي الوعي والثقافة أو المال. ذلك لأن عملية الاندماج والتكيف في مجتمع جديد، ترافق مسيرها مشاكل ومعاناة نفسية واجتماعية كثيرة. وهذا ما أكده علماء النفس والاجتماع. وفي كل بلدان الغرب يعاني المهاجر عقدة الأجنبي، التي تتجلى عنده حينما يواجه مثلا، سلوكا عنصريا ما. وكلما كانت ثقافته الأصلية مختلفة عن ثقافة بلد المهجر، كانت المعاناة أكبر وأشد تأثيرا في النفس.

إن المهاجر الفيليبيني المسيحي في أوربا أو أستراليا، يعاني أقل مما يعانيه المهاجر المصري في بريطانيا أو إيطاليا. والسبب في ذلك يرجع إلى عامل الاختلاف الديني والثقافي.

ويبدو أن الدول الرأسمالية الغربية لا تستطيع العيش بدون مهاجرين من أصحاب السواعد والعقول والأدمغة. لا سيما أنها تعاني تراجعا خطيرا في النمو الديمغرافي، بسبب طغيان فئات الشيوخ والكهول على فئات الأطفال والشباب.

وإذا كان المهاجرون المسلمون في بلاد الغرب أكثر المهاجرين نسبة وعددا، فإنهم أيضا أكثرهم معاناة بسبب دينهم وثقافتهم. إن الحرب المعلنة على الإسلام

في الغرب، باسم الإرهاب، لا يسلم من لظاها المسلمون المقيمون بين النصارى العلمانيين من أبناء أوربا وأمريكا، حيث غدوا أكثر استهدافا لسهام الظلم والعنصرية، وأنواع من الاعتداءات والجرائم.

ويعود تاريخ اهتمامي بموضوع إقامة المسلم في بلاد الغرب إلى سنة **1979** ميلادية، عندما كنت طالبا جامعيا بفاس، وحيث إني قد سافرت وقتها إلى مدينة برشلونة لإنجاز الشق الميداني من بحث الإجازة. فمكثت هناك ما يقرب من ثلاثة أسابيع قابلت خلالها عينة من العمال المغاربة المهاجرين.

وتجددت لدي رغبة البحث العلمي في الموضوع، عندما كنت أدرس في جامعة السوربون بباريس فيما بين **1980** و **1989** في قسم العلوم الاجتماعية. حيث هيأت بحث دكتوراه السلك الثالث في موضوع: "دراسة حول الوضعية الاجتماعية للمغاربة المهاجرين في باريس وضواحيها". وخلال تلك السنوات الثمانية، اطلعت على الواقع المزري الذي يعيشه المغاربة وأبناؤهم.

وفي هذا الكتاب حاولت أن أبين للقارئ مدى الآلام والمعاناة التي يعانيها المسلمون المهاجرون في أوربا، وذلك انطلاقا من النموذج المغربي. وقد قدمت

في الفصل الأول موضوعات ذات طابع أدبي سردي، تضم نصوصا تعبر عن الواقع المأساوي لهجرة العامل المسلم إلى بلاد الغرب.

وفي الفصل الثاني بينت حكم الشريعة فيما يتعلق بإقامة المسلم في بلاد النصارى، مستدلا بنصوص من القرآن والسنة، وبأقوال الفقهاء والعلماء.

وضمنت الفصل الأخير مجموعة من شهادات ووقائع حية مرتبطة بحياة هؤلاء المهاجرين.

ولعل القارئ وهو يقرأ صفحات الفصل الأول، يأخذه الاستغراب بسبب إمعاني في التصوير المأساوي لحياة ومصير العمال المهاجرين وأبنائهم، حتى كأن بعض مظاهر المشهد الموريسكي تتكرر من جديد. والحقيقة أن الأمر كذلك؛ إذ ليس من رأى وخبر، كمن سمع.

وإذا كانت هويات الموريسكيين قد ذبحت وأحرقت بإسم الدين الكاثوليكي، فإن هويات المهاجرين المسلمين تدمر وتستأصل الآن، بإسم الديمقراطية والعلمانية والحرية.

الفصــل الأول:

أشجـان وحسـرات

الهجرة إلى أوربا أو الخيال الذي أعدم

حلم مهـاجـر

أشجـان وحســـرات

وحدي، وحدي....

أركب هذه السفينة للمرة الثلاثين أو الأربعين...لست أذكر.

أنظر إلى وجوه كالحة كوجهي، إنهم مثلي؛ بؤساء تعساء. بعد دقائق ستطأ أقدامنا رصيف ميناء طنجة.

لا أحد يستقبلنا، لا أحد يبتسم لنا، لا أحد يضمنا إلى صدره، كنا غرباء، بقينا كذلك وسنموت غرباء هنا أو هناك.

في السنوات الأولى، كان الأصدقاء والأقرباء والجيران يفرحون لقدومنا، بل ينتظرون عطلة الصيف على أحر من الجمر، نحمل لهم الهدايا المتواضعة فيفرحون، ويجلسون معنا الساعات الطوال، نستمع إلى حديثهم كما يستمعون إلى أخبارنا، أين هم الآن؟!!

بل أين أنا؟ وأين أولادي وأحفادي الصغار؟!! آه كل شيء انتهى.

كلهم ذهبوا عني، وفروا مني فرارهم من المجذوم. لم أعد أصلح لهم، رائحتي تؤذيهم، لغة بلادي لا تعجبهم، كما ينفرون من عادات وتقاليد وطني العزيز. ديني ودين أجدادي يستهزئون به، ويرمونه بالتخلف والإرهاب والرجعية.

إنهم يريدون مسح العار، والانسلاخ من كل الآثار الدالة على أن أصولهم عربية أو إسلامية!!

نبذوني، لأنني شؤمهم وعارهم، وسبب مأساتهم. لطالما سخر منهم زملاؤهم الفرنسيون في المدارس والأزقة.

نبذوني، شتموني، أهانوني...

ها أنا ذا وحدي على ظهر السفينة، ليتها كانت سفينة النهاية، سفينة الموت.

هذا البحر العظيم الذي أنظر إليه، يعج بمخلوقات عجيبة وسعيدة، لا تعرف الحزن، ولا تتألم مثلي، ولم تذق مرارة الغربة، وأنين الشكوى.

آه لو كنت سمكة، لما عانيت النفي والشقاء، لو كنت سمكة لن أكون مسؤولا عن نفسي، وأهلي وأولادي. إن السمكة غير عاقلة، وغير مكلفة، ومع ذلك فإنها تذكر وتسبح خالقها، لكننا لا نفقه تسبيحها. أما أنا، فإنسان عاقل، ومكلف، ومع ذلك لا أذكر الله، ولا أسبحه. وإذا فعلت ذلك فعلى سبيل

العادة والتقليد. بل قلما أصلي الصلاة في وقتها، لأن الأذان في بلاد النصارى ممنوع، والإسلام يحارب هناك. وإذا أردت أن يرضى عنك رب العمل النصراني، فعليك بشرب الخمر، وممارسة الزنا، والظهور بالمظهر اللاديني، أو تتنصر. أما إذا علم منك الاعتزاز بدينك، فأنت ممقوت وعرضة للإهانة، أو للطرد من العمل.

أشاهد الآن، المسافرين وهم يستعدون لمغادرة السفينة، لا يفصلنا عن رصيف الميناء، إلا بعض المئات من الأمتار.

سبحان الله، كم هي جميلة شمس بلادنا! كم هو نقي وعليل نسيمها وهواؤها! سأقضي في هذه المدينة، يومين أو ثلاثة قبل السفر إلى مدينة المحمدية، مسقط رأسي. إذن أركب سيارة الأجرة كي تأخذني إلى الفندق الذي اعتدت الإقامة فيه كلما حللت بطنجة.

دخلت الغرفة وقصدت الحمام واغتسلت كي أزيح عني تعب السفر. ثم استلقيت على الفراش وأطلقت العنان لخيالي الذي قذف بي فجأة في عالم الطفولة والصبا، وعالم المدرسة. وطفقت صور ومشاهد جميلة تتسرب من الذاكرة إلى فضاء المخيلة؛ حيث يحلو لها أن ترقص وتركض. صور ينعكس فيها الحي الذي ترعرعت فيه، والأزقة التي كنت ألتقي فيها بأصدقاء الطفولة

والدراسة. كما ينعكس فيها أيضا مظاهر الأعياد والمناسبات الدينية المفعمة بالبصمات الروحية والإيمانية؛ حيث التكافل والتراحم والتزاور، والإقبال الشديد على القرآن والمساجد خاصة في شهر رمضان. لقد كان أبي رحمه الله يأخذني معه إلى المسجد لصلاة الجمعة وأحيانا لأداء صلاة التراويح في رمضان، كما يأخذني معه أيضا عندما يريد زيارة عمي وعماتي. وإذا استوقفه أحد الجيران أو الأصدقاء، يفرح بي ويدعو لي بالنجاح والتوفيق.

لقد كان الناس وقتئذ؛ أي في ستينيات القرن الماضي بمثابة أعضاء داخل أسرة كبيرة. فإذا مرض أحدهم زاره كل أفراد الحي. وإذا مات يشيع جنازته جميع من كان حاضرا، مع الإحساس بالحزن والأسى لفقدانه. وإذا أملق رجل أو افتقرت أرملة، لن يعدما من يمد إليهما يد المساعدة ويضمد جراحاتهما. وإذا ساءت العشرة بين زوجين حتى أوشكا على الفراق والطلاق، أسرعت يد العناية إلى بيتهما، وبعث القدير الرحمن من يصلح بينهما.

تلك بعض الصور والمشاهد من ماضي حياتي، لازال لها وقع عميق في نفسي.

إن إقامتي في فرنسا ما يقرب من أربعة عقود حالت بيني وبين الاستمتاع باستمرارية تلك الصور والمشاهد وتطورها. إذ بسبب الهجرة، فقدت أصدقاء الطفولة والدراسة، وحرمت خير ورحمة ونعيم وبركات الأعياد والمناسبات

الدينية، وفاتني الأخذ بيد أبنائي والذهاب بهم لزيارة أعمامهم وعماتهم، إلى غير ذلك من الأعمال والسلوكات الاجتماعية والانسانية، التي تزخر بها مجتمعاتنا العربية.

وهكذا لم أحقق صيرورة حياتي الاجتماعية والدينية بشكل طبيعي، كما لم أحافظ على الرابطة بين حلقات السلسلة التاريخية؛ أي السلسلة التي أحكم ربط حلقاتها أجدادي المسلمون المغاربة عبر القرون.

إني ومن سواي من المهاجرين المسلمين في الغرب المسيحي، عندما اتخذنا بلاد النصارى دار إقامة نهائية لنا ولأولادنا، فإننا قد خرمنا حلقات هذه السلسلة، وأحدثنا فيها انقطاعا فيما يتعلق بوجودنا، وانخرطنا في سلسلة تاريخية مسيحية، وقدمنا أولادنا وأحفادنا قربانا لسدنتها!!

هذا أمر لم يكن يخطر ببالي قبيل الهجرة، ولا هجس في ضميري ولا توهمته أو ظننته. إنها لمصيبة المصائب، وفجيعة الفجائع، وقاصمة القواصم. لقد طمعنا في غير مطمع، ولجأنا إلى غير ملجأ، وحللنا بواد غير ذي زرع، فكانت النتيجة ما نرى ونسمع في بلاد الغربة مما يدمع العين ويؤلم القلب، فإلى الله المشتكى.

ما أجمل هذا الصوت الذي اقتحم على غرفتي وأوقف تولد هواجسي وأحزاني، إنه صوت المؤذن الندي يدعو المسلمين لصلاة العصر، سأتوضأ ثم أقصد المسجد القريب من الفندق.

بعد دقائق معدودة وصلت إلى الجامع الكبير، فوجدت المصلين مصطفين قد كبروا تكبيرة الإحرام، فأخذت مكاني في الصف الثاني، وكبرت وشرعت في قراءة الفاتحة فإذا بعيني تدمعان ثم أحسست بقشعريرة تذب في جلدي. وعندما هويت إلى الأرض ساجدا تملكني انكسار نفسي عميق، فسبحت الله ثم أكثرت من الاستغفار. وبعد تسليم الإمام والفراغ من الصلاة لم أستطع مغادرة المسجد لكوني شعرت بطمأنينة تغمر كياني، فآثرت المكوث فيه وانزويت في ركن من أركانه. خرج الناس وبقي عدد قليل؛ بعضهم أخذ المصحف الكريم ليقرأه، والبعض الآخر استند إلى سارية من سواري المسجد وشرع في الذكر أو التأمل. ومنهم من اضطجع على جنبه. ويبدو أن كثيرا من المساجد العتيقة في كل المدن المغربية، تظل أبوابها مفتوحة بين الصلوات؛ حيث يحلو لكثير من المصلين التنعم بالجلوس فيها، طلبا للذكر والراحة، أو هروبا من صخب الحياة وضوضاء المدينة.

أطلقت العنان لخيالي فانهالت علي الخواطر من كل حدب وصوب؛ تارة أسبح في عالم الطفولة البريئة، وتارة أتذكر أسفاري الأولى إلى فرنسا، ومعاناة

الغربة، وتارة أخرى تقفز إلى مخيلتي، صور ومشاهد متعلقة بحياة وواقع أبنائي وأحفادي الصغار، فأشعر بضيق في صدري.

آه، ليتني لم أسافر إلى فرنسا، ولم أغترب!

ليتني لم أتزوج، ولم أرزق أولادا ولا أحفادا!

هذا أمر، جاش في صدري، فضعضعني وهد كياني، وسيصاحبني ويلازمني ملازمة الظل للشيء، إلى أن أوضع في قبري.

كيف أنساه! بل كيف أمحوه من ذاكرتي! لكن، هل أنا وحدي المسؤول عن وقوعه، أم هناك شركاء آخرون؟

يا ربي، خلصني من هذا الشبح الذي يطاردني! وهذا الهاجس الذي أرقني! وقض مضجعي!

لعل قراءة القرآن تزيح عن نفسي ثقل الكابوس.

أخذت كتاب الله بين يدي وفتحته، واخترت سورة الرحمن فقرأتها، ثم قرأت سورة الواقعة، ثم سورة الحديد، إلى إن بلغت سورة التحريم، وبينما أنا أشعر بدفء إيماني ينبع من صميم قلبي، إذ بذلك الدفء يتحول إلى هيب، كاد يذيب

أحشائي، عندما قرأت قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة"، فأجهشت بالبكاء بعد أن أحسست بعظم الذنب، وثقل المسؤولية.

ناجيت خالقي قائلا: لا يا ربي، لم أق نفسي وأهلي نارك التي وقودها الناس والحجارة، أنا المذنب! أنا العاصي! أنا المخطئ، هل لي من توبة؟ وكيف أتوب؟ لم أسمع جوابا، ولكني سمعت المؤذن ينادي لصلاة المغرب: الله أكبر، الله أكبر....غادرت مكاني، واتجهت إلى مكان آخر بالقرب من المحراب، وصليت ركعتين، وأنا حزين منكسر القلب....

أغلقت باب الغرفة، واتجهت إلى أقرب مقهى لتناول الفطور. بعد الاستماع إلى الأخبار، ومشاهدة شريط وثائقي قصير، فكرت في القيام بجولة بين معالم وأزقة القصبة، أو المدينة العتيقة، وما هي إلا لحظات قصيرة، حتى ألفيتني وسطها، أستمتع بجمال هندسة البناء القديم، حيث الأقواس وبعض الشرفات الصغيرة، والأبواب الخشبية، ذات الأشكال الجميلة بعتباتها الحجرية، أو الرخامية، التي تنطق بعقود طويلة من الزمن، حيث أن آثار وطء الأقدام عبر الأجيال المتعاقبة، تبدو ظاهرة عليها.

ها أنا ذا الآن، أتلذذ بالنظر إلى قطع جميلة ونفيسة من المنتوجات التقليدية المعروضة داخل بزار من بزارات المدينة العتيقة. إنها قطع، أو أشياء جلدية، أو نحاسية، أو طينية، أو خشبية، أو رخامية، تناولتها الأنامل، بالصياغة والنقش والزخرفة. إنه إبداع وأي إبداع، يتجلى في تلك القطع والمنتوجات التي تجسد عقودا، بل قرونا من الفن والمهارة والثقافة والحضارة. إنها تختلف شكلا وروحا عن مثيلاتها من المنتوجات الأوربية، ذات الطابع الآني والاستهلاكي.

غادرت البزار، وتابعت سيري بين الدكاكين الصغيرة، والأبواب الخشبية الجميلة، أرى الناس يتحركون بخطوات هادئة. بعضهم يحيي البعض الآخر، كأن يخاطب أحد المارة صاحب دكان قائلا صباح الخير، أو السلام عليكم، أو تستوقف امرأة جارتها فيتحدثان بضع دقائق ثم يفترقان.

بين الفينة والأخرى، أشاهد مجموعة من السياح الأوربيين، وهم ينظرون بعين الاستغراب والتعجب إلى مكونات المدينة العتيقة، والأشياء والمخلوقات الموجودة في فضائها. إن هذا الفضاء يوحي إليهم بأفكار وصور ومشاهد متعلقة بحياة الإنسان المغربي التقليدي، الذي عاش قبل مرحلة الاستعمار داخل أسوار المدن العتيقة، تلك المدن التي داهمتها المدنية الحديثة وغزتها بصناعاتها وهندستها وآلاتها وثقافتها المادية. وتقع عيناي أحيانا علي باب مسجد من المساجد القديمة التي تذكرني بأجيال من الأجداد الذين كانوا يؤمونها بخشوع وطمأنينة،

ويكثرون فيها من الذكر وتلاوة القرآن وطلب العلم. وكان منهم العلماء والفقهاء والمجاهدون رحمهم الله.

استغرقت جولتي في جزء كبير من فضاء المدينة العتيقة ما يقرب من ساعتين شعرت خلالها بمتعة نفسية عميقة وساحرة، وبانجذاب قوي إلى الماضي التليد، ماضي المجد والعزة والإيمان. ثم ودعتها ورجعت إلى طنجة الحديثة التي كانت ولا زالت قبلة الأجانب من الأوربيين؛ من رجال الأدب، والسياحة، والرحالة المستكشفين، والأنتربولوجيين، والممثلين والسياح وعباد الهوى.

لقد زاد اتساعها وكثر سكانها، وتولدت فيها أحياء جديدة، وتضاعف نشاطها التجاري والاقتصادي، وامتلأت شوارعها بالسيارات، وأرصفتها بالمارة، ومقاهيها ومطاعمها بالزبناء والرواد.

أرى معظم الناس يتحركون حركة نشيطة توحي بالعمل ونوع من التفاؤل. لكن أجور العمال في عموم مغربنا، ضعيفة ولا تكفي لسد الحاجيات الضرورية. وكثيرا ما يعجز الآباء عن شراء الدواء لأبنائهم، أو توفير ما يحتاجون إليه مما يتعلق بالدارسة. ومع ذلك فالحياة قائمة، والكل يبذل من الجهد ما يستطيع. كما أن عامل التكافل الاجتماعي بين الناس متوفر إلى حد ما. ولأن يتحمل

الإنسان في وطنه قساوة العيش، خير له من أن يكتوي بنار الغربة، وتشرد الأسرة، وانحراف الأبناء وتفرنسهم في بلاد النصارى.

لقد شعرت بشيء من التعب والعطش بسبب المشي الطويل، أحس بالحاجة إلى الاستراحة...

وبينما كنت جالسا أحتسي فنجان شاي في شرفة المقهى وسط المدينة، إذا بشخص يدنو مني، ثم جلس بجانبي، وطلب من نادل المقهى فنجان قهوة. وما أن نظرت إليه حتى بادرني بالتحية كأنه يعرفني، فانشرح صدري له. وبعد هنيهة التفت إليه قائلا:

الشمس في المغرب دافئة وجميلة.

فقال: لعلك تعيش خارج الوطن.

فأجبت: نعم، في فرنسا بلد البرد والضباب.

فقال: منذ كم سنة وانت تقيم في هذا البلد؟

قلت: أكثر من أربعين سنة.

فقال: ألا تفكر في العودة إلى الوطن الحبيب؟

قلت: كان ذلك ممكنا في السنوات العشر الأولى.

فقال: وما يمنعك الآن؟

قلت: أسباب وموانع كثيرة.

فقال: هلا ذكرت لي بعضها؟

فتنفست الصعداء وقلت: أبنائي، أبنائي!

قال: وما شأن أبنائك؟

قلت: لا يحبون وطن أبيهم، ولا يرغبون في زيارته.

فقال: وما سبب هذا النفور والكراهية ؟

قلت: إنهم ولدوا وترعرعوا في فرنسا، ولا يعرفون شيئا عن مسقط رأس أبيهم، ولا عن أعراف وتقاليد بلاده، إلا ما يرونه أو ما يسمعونه من خلال وسائل الإعلام، إضافة إلى أن صورة المغرب، في أذهانهم ليست مشرفة أو جذابة. ليس هناك سبيل لإقناعهم بالعودة. أستسمح، لقد أخطأت عندما قلت: "لإقناعهم بالعودة"، ذلك بأنهم لم يولدوا في المغرب حتى يعودوا إليه. إنهم أبناء فرنسا، أقولها وأنا أتجرع كأس المرارة!

ثم سألني: هل يتكلم أبناؤك اللغة العربية والدارجة؟

فأجبته: لدي خمسة أولاد: ثلاثة منهم قد تجاوزوا سن العشرين، يتكلمون الدارجة المغربية بصعوبة، غير أن دارجتهم لا تخلو من ألفاظ فرنسية يستعينون بها على إتمام كلامهم. أما الولدان الأخيران؛ أحدهما عمره أربعة عشرة سنة، وعمر الآخر عشر سنوات، فلا يستطيعون تركيب جملة واحدة بالدارجة المغربية.

ثم سألني قائلا: حدثني عن المظاهر الدينية في حياتك الأسرية؟

فقلت: لا أحد من أبنائي يصلي، كما أنهم لا يعرفون عن الإسلام إلا رمضان والعيد الأضحى.

فقال: وهل يصومون رمضان؟

قلت: عدد قليل من أبناء المغاربة الذين يصومون رمضان في الحي الذي أقطنه، بل منهم من يصوم بضعة أيام فقط! وكثيرا ما يسخر منهم أقرانهم الفرنسيون.

وعلى العموم فإن أبناء الجالية العربية في فرنسا يفضلون الظهور بالمظهر اللاديني، كي يسلموا، ولن يسلموا، من سهام العنصرية. كما أن ما يسمى

أخيرا بالإرهاب، قد أثر كثيرا في نفسية المهاجرين المسلمين في أوربا، مما أدى ببعضهم إلى الابتعاد نهائيا عن المساجد وعن المراكز والجمعيات ذات الطابع الإسلامي.

فقال: إنك قلت: "يفضلون الظهور بالمظهر اللاديني"، ماذا تعني بقولك هذا؟

قلت: أعني أن أبناءنا الذين نشأوا في فرنسا يعانون وطأة العنصرية والتهميش، بسبب بشرتهم، وأصولهم العرقية، والدينية، والثقافية. ولذلك فهم يريدون التجرد والانسلاخ مما تبقى من عناصر هويتهم، خاصة فيما يتعلق بالجانب الديني والثقافي.

فقال: وهل تظن أن عملية الانسلاخ هذه يمكن أن تتحقق دون متاعب ومشاكل أو أزمات؟

قلت: لا يمكن أن تتحقق بسهولة، كما أن آثارها السلبية في نفسية هؤلاء الأبناء خطيرة جدا ولا يمكن وصفها.

ثم سألني قائلا: هل تستطيع تصور أخطار ما يمكن أن تفرزه عملية الانسلاخ هذه، حالا ومستقبلا؟

فأجبته: أما حالا، فإن لهذه العملية جراحات وآثارا نفسية عميقة مؤلمة، لا يمكن التخلص منها، وإنما قد تنمحي نهائيا بدءا من حياة الجيل الرابع أو الخامس. وأما مستقبلا، فإن أبناء الجيل الرابع والجيل الخامس، والأجيال اللاحقة، لن يربطهم شيء بأصولهم المغربية، وسيذوب معظمهم كليا في المجتمع الفرنسي.

فقال: لعلك تهذي، وأظن أنه لن يحصل هذا أبدا، ولن يتنكر أبناء وأحفاد المغاربة لأصولهم العرقية، ولهويتهم ودينهم.

فاعترضته قائلا: بل ما أقوله لك قد بدأ منذ أكثر من عقدين، وسيشمل عدد كبيرا من الأحفاد، إلا من رحم الله.

فقال: إذا كان الأمر كما تتصور، ألسنا إزاء كارثة إنسانية وحضارية لا حدود لها؟

قلت: نعم.

قال: ومن يتحمل مسؤولية ذلك.

قلت: المسؤولون في البلد الأصلي، أولا، ثم المسؤولون في فرنسا ثانيا، لأن المسؤولين في البلدين قد وقعوا اتفاقيات ومعاهدات تقضي ب "تصدير اليد

العاملة المغربية الرخيصة إلى فرنسا كي تعمل في هذا البلد". وبقي باب الهجرة مفتوحا على مصراعيه قرابة ثلاثة عقود. ثم أغلق، وفتح بدله باب الهجرة السرية. وكما استفادت الحكومة المغربية من العملة الصعبة التي يبعثها العمال المهاجرون، أو يحملونها معهم عندما يزورون بلادهم، استفادت الحكومة الفرنسية من السواعد الفتية بأجور زهيدة. والخلاصة أننا، نحن العمال المغاربة المهاجرين، ضحايا السياسة المغربية الفرنسية.

فقال: أظن أن هناك مسؤولا آخر لم تذكره، ولا يقل أهمية عن أولئك المسؤولين.

قلت: لعلك تقصدني.

قال: نعم، وأراك رجلا فطنا.

قلت: لو كنت فطنا ما أقدمت على الهجرة وما أسهمت في صنع الكارثة.

فقال: أصدقني القول يا صاحبي، هل هاجرت إلى فرنسا مكرها أم باختيارك ومحض إرادتك ؟

فأجبته: بل بكل اختياري وإرادتي.

ثم سألني: وهل كنت مسكينا أو فقيرا، عندما عزمت على الهجرة، أم دفعك إلى ذلك الرغبة في الغنى ؟

فقلت: لم أكن فقيرا ولا مسكينا، ولا أعرف أحدا من المغاربة هاجر إلى فرنسا بسبب الفقر، وإنما غرنا الذين سبقونا بأموالهم وسياراتهم، وتمكن الطمع من نفوسنا. فمنا من باع أرضا، ومنا من باع ماشية أو دكانا. بل منا من ترك وظيفة عمومية. وأقلنا مالا من كان يحترف البناء أو الزراعة.

فقال: إذا كانت هجرتك بمحض إرادتك، وكانت ملابساتها كما ذكرت، فمن المسؤول بالدرجة الأولى عن كارثة الأبناء والأحفاد؟ ،

فقلت: إنهم الآباء، إنهم الآباء، وعيناي تدمعان.

الهجرة إلى أوربا أو الخيال الذي أعدم

تأملت حياتك فوجدها مليئة بالأتعاب، والشقاء، وآلام الغربة، والضغوط النفسية، والاجتماعية. لا شك أنك حزين كئيب....

قبل عقد، أو عقدين، أو ثلاثة، أو أكثر، كنت في بلدك المغرب، الجزائر، تونس، مصر....، تحلم بأن تطأ أقدامك أرض أوربا، حيث المال، والحداثة، والجمال، والعدالة، والعلم، والتقدم، و....

تحقق الحلم بعد أن قطعت المسافة أرضا أو جوا، ونزلت بالديار الأوربية، وانبهرت بالأضواء، والشوارع الفسيحة المضيئة، والعمارات الزجاجية الشاهقة، والقناطر الفولاذية المتقنة، والبساتين الجميلة الواسعة الفيحاء، ووسائل النقل النظيفة المريحة، والمقاهي، والمطاعم الفخمة، إلخ.

كما أعجبت بأسلوب الحياة، ونظام العمل، واحترام الإنسان الأوربي للقوانين الاجتماعية والمدنية، وحبه للعلم والمعرفة والإنتاج.

أنزلت الإنسان الأوربي منزلة عظيمة في قلبك حتى كاد يملكه، وطفقت تتحدث عنه مع أصدقائك بكل إعجاب. لقد صار في عينيك المثل الأعلى، إنه

معلم البشرية، المبدع، المنتج، القاهر، العالم، المسير، المتحضر، صاحب الرسالة الحضارية العالمية، إلى غير ذلك من الألقاب والتشريفات وأوصاف المدح.

وكما تألقت في عينيك شخصية الإنسان الأوربي، كسفت فيها شخصية الإنسان المغربي والعربي أو المشرقي؛ ذلك الإنسان الجاهل، الفقير، الغبي، المستبد، المتكبر، المعاند، الذليل، الذي يحمل كل أوصاف الضعف والجهل والتخلف.

إن نظرة الإعجاب إلى الأوربي المصاحبة لنظرة الاحتقار إلى المغربي أو العربي أو المشرقي، أثرت في هويتك وجعلتك تنسلخ تدريجيا من بعض مكوناتها وعناصرها، وبدأ طبعك يتأثر بطباع الأوربيين، وطفقت شخصيتك تتقمص بعض ملامح شخصيتهم.

مرت السنوات الأولى، كنت خلالها تفكر في جمع المال، وإقامة مشروع تجاري في البلد الأصلي بعد الرجوع النهائي. كما كنت تجتهد في اكتساب أوصاف وسمات الإنسان الأوربي المتحضر، و تعلم لغته، وتقليده في الملبس والمأكل وأسلوب الحياة، وفي التفكير في متاع الدنيا وملذاتها. لكن تحقيق هذه الأحلام وغيرها، لا يتم إلا بتوفير بعض الشروط الضرورية لمتابعة الحياة باطمئنان وسعادة، منها إيجاد الأسرة.

تزوجت أو استدعيت زوجتك، إنه حدث عظيم، حيث شعرت بالدفء النفسي، وألفة الحياة الزوجية، ثم ازدادت الأحلام والآمال وتنوعت. مرت سنوات أخرى؛ أنجبت خلالها زوجتك أولادا، فكبرت الأسرة، وكبرت معها الأحلام.

ثم بدأ الأولاد يتلفظون بالكلمات الفرنسية، أو الإنجليزية، أو الألمانية، أو....، ويتمتمون أحيانا بكلمات عربية، تلتقطها آذانهم من فمك أو فم زوجتك.

لقد شعرت بنشوة تغمر كيانك وهم يستعملون الكلمات الأولى للغة الفرنسية، أو الإنجليزية....، التي تعلموها من أبناء الجيران الأوربيين، أو في رياض الأطفال بالمدرسة. لكنك همست إلى نفسك قائلا:

أخشى أن يقتصر لساهم على لغة الأوربيين، ولا يتكلمون العربية إلا كلمات، لا لن يحدث هذا أبدا، وسأرجع إلى بلادي قبل أن يلجوا سن البلوغ، بل قبل سن العاشرة. بيد أنني سأعمل وأكدح، كي أوفر المال لبناء منزل في أرضي الحبيبة، مسقط رأسي.

وما هي إلا سنوات معدودة، حتى كان البيت جاهزا، وبدأت تأوي إليه في عطلة الصيف، حيث تلتقي بالأقارب والأحباب.

إن التفكير في الرجوع النهائي، غدا شغلك الشاغل، خاصة أن الأبناء يكبرون، وعجلة الزمن تدور بسرعة. لكن المال الذي توفره لإقامة المشروع التجاري في البلاد ينمو ببطء، بل سرعان ما تلتهمه الحاجات المتجددة ، لتنطلق عملية التوفير من جديد.

وإذا ما حالفك حظ، وتوفر لديك نصيب من المال، بعد أن سلم من مخالب الحاجات، احتقرته، واستهنت به، وقلت: هذا لا يكفي لإقامة مشروع تجاري مناسب في بلادي. ومرت بضع سنوات، والحرب سجال بين جيش التوفير، وجيش الحاجات المتجددة، إلى أن وضعت أوزارها، بقدوم طرف ثالث إلى حلبة الصراع، إنهم الأبناء، وما أدراك ما الأبناء!!!

لقد ولج هؤلاء الأولاد سن المراهقة، وبدأوا يتحررون من سلطة الآباء، كما شعروا بأن كيانهم متجذر في التربة التي ولدوا ونشأوا فيها، وقد تغذت نفوسهم بثقافة وعادات ومدنية الأوربيين، فرفضوا كل ما تفكر فيه من أسطورة العودة، وخاطبوك بصريح العبارة: إن شئت فارجع إلى وطنك، أما نحن فلن نغادر وطننا!!

كلام غاية في المنطق والصواب، لكنه أشد ألما في قلبك من طعنة الخنجر. هناك شعرت بآمالك وأحلامك تتهاوى، كما تفعل القصور الرملية التي يصنعها الأطفال على الشاطئ، عندما تدنو منها مياه البحر فتحولها من خيال إلى عدم.

نعم، لقد أعدم خيالك لأنه كان خيالا. كما كان خطاب الأبناء أو موقفهم من "حلم العودة" بالنسبة لك، بداية العد العكسي، وبداية النهاية.

نعم، تبين لك أنك كنت تعمل في غير معمل، أو كنت تضرب في حديد بارد، وأن سنوات التعب والكدح ذهبت نتائجها وثمراتها أدراج الرياح، وقديما قال الشاعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

ضاقت بك الأرض بما رحبت، بعد أن حصل ما لم يكن يخطر ببالك، ولا هجس في ضميرك، إنهم أبناؤك الذين كنت تتعب من أجلهم، وتكد وتشقى لكي يسعدوا في مستقبلهم!

إن السنوات التي كنت خلالها تبذل مجهودات كبيرة في تنشئتهم، ورعايتهم، وتفكر في حياتهم ومستقبلهم بعد العودة إلى الوطن الحبيب، هي السنوات نفسها التي، على حين غفلة منك، صاغت شخصيتهم، وغذتها بعناصر

ومكونات الثقافة الأوربية، وأرضعتهم لبن التربية العلمانية، وبذرت في قلوبهم بذور المحبة للوطن الذي نشؤوا فيه، وترعرعوا في أحضانه. فكيف يغادرونه إلى أرض لم ينشؤوا فيها ولم يألفوها، ولا يتكلمون لغتها إلا كلمات متقطعة، أو جملا مزركشة، وينفرون من عاداتها وتقاليدها، بل يستغربون من أسلوب حياة أهلها، ونمط عيشهم. هيهات هيهات، هل تريد بعد هذا كله، أن تقنعهم بأفضلية وطنك الحبيب، وجمال طبيعته، وكرم أهله، الخ. كلا وألف كلا، إلا أن يشاء الله.

ويصدق عليك قول الشاعر:

متى يبلغ البنيان تمامه إذا كنت تبني وغيرك يهدم!

لقد أخطأت الطريق عندما غادرت وطنك الحبيب.....

إن بلدان أوروبا عندما شرعت في إعادة بناء ما دمرته الحرب العالمية الثانية، وعزمت على بناء الطرق الجديدة، وحفر أنفاق المترو....، احتاجت إلى مزيد من الأيدي العاملة. فأبرمت حكوماتها اتفاقيات مع بعض الحكومات العربية، مثل حكومات المغرب والجزائر وتونس، تقضي بإرسال أعداد من الشباب للعمل في أوربا. وهكذا اندفع عشرات الآلآف من هؤلاء الشباب نحو القارة العجوز يحدوهم أمل الغنى والرفاهية....

لقد كنت من بين الذين وقعوا في فخ تلك الاتفاقيات، وأنت تحسب نفسك من المحظوظين!! واستغلت أوربا قوة عضلاتك، كما استفادت حكومتك من أموالك التي ادخرتها في مصارف وطنك الحبيب، أو استثمرتها في بناء منزل العودة!! ثم لما بدأت تقترب من سن التقاعد، أخذت أبناءك ليحلوا محلك، ولتعالج بهم خلل النمو الديموغرافي لديها.

يا له من استغلال بشع، ويا لها من اتفاقية لا إنسانية نكراء، تلك التي أوقعت في شركها مئات الآلاف من الشباب، وأبعدتهم عن أوطانهم، وأذاقتهم مرارة الغربة، وآلام الذل، والعنصرية والهوان، واستنزفت طاقاتهم العقلية والبدنية، وحالت بينهم وبين أبنائهم!!

أخي المهاجر، إن هناك عاملين أساسيين تظاهرا وتضافرا لإخراجك من وطنك الحبيب، وقذفا بك في أوربا عبدا مستغلا في المناجم، أو المعامل، أو أوراش البناء، أو الطرقات...

هذان العاملان هما:

الأول: طمعك المادي، وانبهارك بأوربا، وإعجابك بمدنيتها وقوتها وصناعتها.

العامل الثاني: الاتفاقيات المبرمة بين الحكومات الأوربية، وحكومات الدول المصدرة للأيدي العاملة. إن هذه الاتفاقيات فتحت الطريق، ومهدت السبل، وشجعت الشباب على الهجرة، ووعدتهم بالأماني المعسولة، وأغرتهم بالربح والسعادة!!

لقد كان العمال المهاجرون في عقد الستينيات والسبعينيات، وفي منتصف عقد الثمانينيات يرجعون إلى أوطانهم في الشهر السابع أو الثامن من كل سنة، يحملون معهم الأموال والهدايا الكثيرة، والناس معجبون بهم، ويتمنون ما هم فيه من ثراء ورفاهية!!، وكثيرا ما ينظرون إليهم بعين الحسد، وهم يشترون الأراضي، ويبنون المنازل الفخمة، ذات الطوابق، بل شيدت أحياء بأكملها من أموالهم. ولم يكد عقد الثمانينيات ينصرم، حتى أفل نجم الثراء والرفاهية، فتوقفت أموال المهاجرين عن التدفق أو كادت، واختفت هدايا الأقارب والأحباب، وتقلص بناء تلك المنازل.

إن موجات الركود الاقتصادي التي عصفت بكثير من دول أوربا منذ مطلع التسعينيات وإلى الآن، أثرت في وضعية العمال المهاجرين، حيث ارتفعت نسبة البطالة في صفوفهم، كما صاحب ذلك أيضا استفحال ظاهرة العنصرية، مما تسبب في سيل من الاعتداءات عليهم وعلى أبنائهم.

ومن ناحية أخرى، فإن مجيء بعض الأحداث السياسية والاجتماعية الجديدة، المرتبطة بالعالم الإسلامي، مثل: الثورة الإيرانية، والجهاد الأفغاني، وأحداث الجزائر الناتجة عن حركة جبهة الإنقاذ الإسلامية، والمقاومة العراقية للغزو الأمريكي، ثم ظهور ما سمي ب "القاعدة"، بعد أحداث شتمبر **2001** بنيويورك، وكذا حدوث بعض التفجيرات في مدن أوربية، نسبت إلى أعضاء فاعلين في "القاعدة"، أو نشطاء في الجهاد الإسلامي....

إن هذه الانتفاضة التي عرفها العالم الإسلامي، والتي تشير إلى أن هذا العالم بدأ يتحرك ويشق طريقه نحو الانعتاق والتحدي، كان لها وقع سيء في نفوس المسؤولين الغربيين، الذين سرعان ما كشفوا عن نواياهم العدائية، فشرعت وسائل الإعلام؛ المكتوبة والمسموعة والمرئية، تصف هذه الانتفاضة وهذه الصحوة، بكل أوصاف الغرابة، والوحشية، والإرهاب، واللاإنسانية، كما تحذر العالم من خطرها. وهكذا انتشر في الغرب المسيحي ما سمي ب: إسلامفوبيا؛ أي الخوف من الإسلام.

كما أثارت هذه الصحوة قضية وجود المسلمين في الغرب، وتزايد أعدادهم يوما بعد يوم، مما أثار قلق الغربيين، وجعلهم يفكرون فيما ينبغي عمله إزاء ما سماه بعضهم؛ "الغزو الإسلامي للغرب."

وخلاصة القول: إن هذه الأحداث والوقائع التي جعلت الروح الصليبية تتجدد في كيان الغربيين المسيحيين، ويعبرون عنها في حياتهم اليومية، وفي وسائل الإعلام، والمؤسسات التعليمية، دفعت هؤلاء الغربيين كي يكرهوا العمال العرب المهاجرين وأبناءهم أكثر فأكثر، ويمعنوا في استغلالهم واحتقارهم، والاستهزاء بهويتهم، ومقوماتهم الدينية، ولا أدل على ذلك من قضية الحجاب، وقضية الرسوم المسيئة إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

أخي المهاجر، لا شك أنك شعرت بكراهية الأوربيين، وعدائهم للإسلام والمسلمين، وأن هذا العداء ازدادت حدته، وتضاعف بعد حدوث تلك الأحداث والوقائع المشار إليها آنفا. لقد أحسست بوطأة تلك الكراهية التي تعلو محياهم، وتنطق بها ألسنتهم، فتنطلق كلماتها المقيتة كالسهام النارية، نحو قلبك، وقلوب أمثالك من المهاجرين المسلمين.

ما كنت تحسب قبل عقود مضت، عندما غادرت وطنك الحبيب أن الأيام ستباغتك بهذه الدواهي المدهية، والنوائب المبكية، والشدائد والنكبات وقوارع الدهر: أحلامك لم تتحقق، وأبناؤك تمردوا عليك، وسخروا من أفكارك وتصوراتك، والبلد الأوربي الذي طلبك واستقبلك، ودعاك لبناء طرقه، والعمل في الأعمال الشاقة، تنكر لجميلك، وقلب لك ظهر المجن، بعد أن استغل فتوتك

وشبابك، ثم أخذ منك أبناءك قسرا وقهرا، وأنت لا تستطيع فعل شيء، كأنك مكتوف الأيدي.

إن الميراث الديني، والثقافي، والحضاري، الذي انتقل إليك عن طريق الآباء والأجداد، والذي شكل عناصر ومقومات هويتك، وشخصيتك، وكيانك، تجمد في عروقك وأوصالك، لأنك لم تستطع نقله وإيصاله إلى أبنائك، بسبب انقطاع التواصل بينك وبينهم، ذلك الانقطاع الذي نتج عن اختلاف التربتين والنشأتين؛ إذ أن وحدة التربة والنشأة شرط أساسي وجوهري لنقل الميراث.

عندما تجمد الميراث في أوصالك، وشعرت بنهايتك، حيث لم تتحقق سيرورتك واستمراريتك الوجودية في شخص أبنائك، أورث ذلك حزنا عميقا في قلبك، تولد عنه طائفة من الهواجس والوساوس، وأنواع من المخاوف والخيالات المؤذية، والتي كثيرا ما تتعب المصابين بالأمراض النفسية.

لقد أكدت الدراسات النفسية والاجتماعية قديما وحديثا، أن "الإنسان ابن بيئته"، فمن نشأ وترعرع وكبر في بيئة معينة، فهي أمه ومرضعته وملهمته، وبها يتأثر، ولها يخضع، وبأوامرها يأتمر، وبأحلامها يعيش، وبثقافتها يتنفس.

وللمجتمع من خلال اللغة، والمؤسسات التربوية، والثقافة والعادات والتقاليد، سلطة قاهرة على الفرد الذي يحيا بداخله. وقلما يثور الفرد على هذه

المكونات والعناصر المادية والمعنوية، التي يتأسس عليها مجتمعه. بل كيف يثور عليها، وكيانه مرتبط بها.

أخي المهاجر، إن من أبشع الجرائم المعاصرة وأفظعها؛ اعتداء الطغاة وأصحاب القرار في البلدان الغربية، على هويات الأبناء المهاجرين المسلمين كأبنائك، ذلك أن البرامج التعليمية والتربوية المعدة لهؤلاء الأبناء، وأساليب الاندماج والتكيف التي تمارس عليهم ترمي بالدرجة الأولى، إلى سلخهم عن هويتهم، كي يذوبوا وينصهروا في الهوية الغربية العلمانية.

ومما زاد الطين بلة، أن الحكومات العربية التي صدرت أبناءها للعمل في أوربا، لا تبدي اهتماما حقيقيا بموضوع هوية أبناء المهاجرين وأحفادهم...أما ما تقوم به جهات معينة، أو جمعيات ومؤسسات، سواء بتنسيق مع تلك الحكومات أو بغير تنسيق، فيما يخص تعليم اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامي لأبناء الجاليات العربية، فإن ذلك مجرد مجهودات متواضعة أو ضعيفة جدا، لا ترقى إلى مستوى الإنقاذ، بله إثبات الذات والتحدي.

ولما كنت طالبا جامعيا في مدينة باريس، خلال العقد الثامن من القرن العشرين الميلادي، كثيرا ما كنت ألتقي بفرنسيين طلبة، أو أساتذة، أو أطباء، أو مهنيين، من أصول عربية قديمة، بعضها جزائرية، حيث أن فرنسا استعمرت

الجزائر سنة **1830**، فحصل الزواج بين كثير من الجزائريين والفرنسيات خاصة في فرنسا، وظلت ألقاب أولئك الجزائريين مقترنة بأسماء أولادهم وأحفادهم.

لقد تلاشت هويات أولئك الأحفاد ولم يبق منها سوى ذلك اللقب، حيث تحولوا مع الزمن إلى فرنسيين مسيحيين أو علمانيين. كما أن هنالك حالات مماثلة لتونسيين أو مغاربة تزوجوا فرنسيات أثناء الفترة الاستعمارية.

"في مرحلة الاستعمار الفرنسي، هاجرت مجموعة من مسلمي شمالي إفريقيا وإفريقيا الجنوبية الغربية إلى فرنسا، وكانت هنالك أقلية تسكن في باريس ومرسيليا وليون قبل الحرب العالمية الأولى، ومع بداية الحرب دخل بعض المسلمين المهاجرين في الجيش الفرنسي، وشاركوا في المعارك المختلفة، وتقدموا إلى قلب ألمانيا، حيث قتل عدد منهم، وفي الحرب العالمية الثانية، شارك مسلمو شمال إفريقيا في وحدات الجيش الفرنسي. وقد قتل عشرات الآلآف من المسلمين في المعارك الضارية التي دارت بين فرنسا وألمانيا دفاعا عن الأرض الفرنسية.[1]"...

---

[1] - محمود خد اقلي بور وفهيمة وزيري: الإسلام والمسلمون في فرنسا " ترجمة الدكتورة دلال عباس ...للطباعة والنشر / بيروت **1425 - 2004**.

وقد عثرت في الانترنيت على قائمة طويلة من الألقاب المغاربية المقترنة بأسماء فرنسية، وجل أصحابها لا يزالون على قيد الحياة، ويشغلون مناصب أو وظائف معينة، أو يحترفون الطب، والهندسة، والمحاماة، أو التجارة، إلى غير ذلك من المهن، مثل **Jacques Amrani** أي جاك العمراني، أو **Juliette Mrabet**أي جولييت المرابط وهكذا...وأغلبهم يمثلون الجيل الرابع، أو الخامس، أو السادس، أو السابع، في سلم الأجيال المنحدرة من الجيل الأول، الذي كان يتكون من المغاربيين، الذين هاجروا إلى فرنسا قبل أو خلال الفترة الاستعمارية، أو الذين تجندوا في الجيش الفرنسي خلال الحربين العالميتين.

وقد أجريت دراسات اجتماعية وميدانية حول الوضع الثقافي، والديني، والاجتماعي، للأجيال المتأخرة من هذه الأمثلة، فتبين أن أفرادها لا تربطهم أدنى علاقة دينية أو ثقافية، بدين أو ثقافة الجد المغاربي الأول، الذي تصلب ميراثه الديني، والثقافي في كيانه، ولم ينتقل إلى أبنائه أو أحفاده، أي إلى الذرية اللاحقة.

يا لها من مأساة، ويالها من كارثة!!؟

إن مثل هذه الأحداث، تعيد إلى أذهاننا صورة الموركسيين، ذلك الشعب الأندلسي المسلم الذي اضطهد على يد المتعصبين من المسيحيين الكاثوليك، بعد

سقوط مملكة غرناطة، آخر معاقل المسلمين في الأندلس. لقد حاول المورسكيون الأوائل المحافظة على دينهم وتراثهم لكن دون جدوى، لأن الأعمال العسكرية والتنصيرية، التي كانت تقوم بها السلطات والكنائس المسيحية، من أجل القضاء على ما تبقى من الروح الإسلامية، وطمس كل معالم الإسلام في ربوع إسبانيا، أقوى بكثير من إرادة الموركسيين، الذين لم يستطيعوا الهجرة إلى بلدان المسلمين، أو آثروا البقاء في البلاد، حفاظا على ممتلكاتهم، وطمعا في عودة الإسلام، أو لأسباب أخرى.

إن مئات من العائلات الإسبانية المسيحية المعاصرة، ترجع في نسبها إلى أصول عربية إسلامية، تنصرت بعد خروج المسلمين من الأندلس، عندما ظلت بين أحضان المسيحيين اختيارا أو إكراها.

إن هناك مماثلة أو مشابهة بين المسلمين الموركسيين الذين تنصروا مع الزمن، وبين أولئك الفرنسيين من أصل جزائري أو تونسي أو مغربي أو الذين تنصروا أو تعلمنوا مع الزمن، أو مئات الآلاف من أبناء الجيل الثاني، أو الثالث، والرابع الذين هم في طريقهم، بعد انسلاخهم من الهوية العربية والإسلامية نحو التنصر أو العلمانية، إلا من عصمه الله.

إن العامل المشترك بين الموركسيين وبين هؤلاء "الموركسيين الجدد"، هو إقامتهم واستقرارهم جميعا في البلاد المسيحية، فصدق عليهم قول القائل؛" الإنسان ابن بيئته"، وهو بيت القصيد أو مربط الفرس.

أخي المسلم المهاجر، لقد أوضحت لك كيف أن الحكومات الأوربية، تسعى سعيا جادا في سبيل إتلاف هوية أبناء المسلمين، وطمس معالمها الدينية والثقافية، وأن الحكومات والمسؤولين في البلدان العربية المصدرة لليد العاملة، لا عمل لهم في هذا الشأن، باستثناء بعض المحاولات والمساعي الباهتة. لكن هذا لا يعني أن المهاجر نفسه لا يد له في هذه الكارثة، كلا إنه المسؤول الأول، فهو الذي هاجر إلى بلاد النصارى باختياره لا كرها، وفضل العيش هناك بكامل إرادته وحريته، وتزوج وأنجب أولادا، وعندما كبروا وتمردوا عليه، وركنوا إلى الوطن الذي نشأوا فيه وأحبوه، أدرك أبوهم خطأ فعله، وما أقدم عليه عندما هاجر وطنه الحبيب.

يقول المثل العربي:

"يداك أوكتا وفوك نفخ".

حلم مهاجر

استيقظت خديجة من نومها متأخرة، ودلفت إلى المطبخ لتهيئ وجبة الفطور. وبعد لحظات، تذكرت حفيدها دينا التي تركها أبواها في بيت جدها، وسافرا لقضاء عطلة آخر الأسبوع. ولما ذهبت إلى غرفتها وجدت الفراش خاليا، فأطلت من نافذة الغرفة، وشاهدها تلعب مع بعض الأطفال الفرنسيين، من ذوي الأصول العرقية المختلفة.

عادت إلى المطبخ، وشرعت كعادها، تجتر بعض الأفكار والهواجس، وتستحضر صورا ومشاهد مؤلمة لها علاقة بحياة الغربة. وفجأة تذكرت التراع الأخير الذي احتدم بين ابنها مصطفى وزوجته كاترين، حول اسم المولود المرتقب، حيث تصر الأم على تسميته باسم فرنسي خلافا لرغبة أبيه. تأثرت خديجة عندما تذكرت هذا الخصام لكونها تعرف نفسية ابنها ومزاجه العصبي.

لكنها همست: أي عيب فيما لو سمي المولود جاك أو بيرنار! إن كثيرا من أحفاد المهاجرين العرب اختار لهم آباؤهم أسماء فرنسية ليسهل عليهم الاندماج والتكيف والعمل، وليتجنبوا آلام العنصرية البغيضة. إن جارتي كنزة لها حفيدان: ميشال وصوفيا. كما أن الأطفال الذين يلعبون مع دينا، يحمل عدد منهم أسماء فرنسية وهم من أصول مغربية أو جزائرية أو تونسية.

بعد ذلك، انتقلت خديجة بذاكرتها إلى المغرب وتذكرت موقف عائلتها وعائلة زوجها من هذا الأمر، فأصابها الغم والأسى.

ثم خاطبت نفسها:

لقد طال نوم أحمد هذا اليوم.

اقتربت من الفراش ونادته: استيقظ يا أحمد إنها العاشرة صباحا، لقد أعددت لك فنجان القهوة.

أحمد: إن رأسي يوجعني أكثر من العادة، وأشعر بانقباض شديد في صدري.

لماذا هذا الوجع والانقباض؟ لعل أحد أصدقائك الذين تجالسهم في مقهى الحي، قد أساء إليك البارحة؟

يا خديجة؛ لقد رأيت الليلة حلما مزعجا...

ماذا؟

لقد رأيت هذه الليلة في منامي كأني جالس على كرسي مقابل باب كنيسة نوتردام، وإذا بهذا الباب يفتح، فيخرج منه أحد القساوسة ومعه أطفال في سن العاشرة، يحملون الصلبان على صدورهم، وهم في غاية الفرح والسرور. فانقبض صدري، وأحسست كأن خنجرا مسموما أغمد في قلبي.

وأجهش بالبكاء..

لماذا تبكي يا أحمد؟ إنها مجرد أضغاث أحلام، لا تلق لها بالا، وتعالى لتناول وجبة الفطور.

كيف أستطيع نسيان هذا الحلم، وقد رأيت بعيني حفيدتنا دينا، وبعض أحفاد جيراننا المغاربة مع أولئك الأطفال. إن هذا الحلم يقلقني، وسيظل يطاردني إلى أن أموت.

إن الأحلام لا تعدو أن تكون أحلاما. ولو كانت الأحلام التعيسة والكوابيس السوداء المظلمة تتحقق كلها لتعذرت حياة الناس. وكل ما في الأمر أن الإنسان كثيرا ما يرى في منامه صورا ترتبط بأحاديث النفس، أي بالموضوعات التي يفكر فيها أثناء يقظته.

هذا صحيح. لكن إذا كان أولاد المغاربة لا يصلون، وقلما يصومون. كما أن كثيرا من أحفاد جيراننا لا يعرفون أركان الإسلام الخمسة، ولا يتكلمون العربية، ولا الدارجة المغربية، ويتزوج أو يختلط ذكورهم بالفرنسيات وإناثهم بالفرنسيين. إذا كان حال هؤلاء كما ترى، فكيف سيكون أحفادهم بعد عقود أو قرن من الزمن؟

هذه أمور لها علاقة بالغيب، ولا تعنينا، ولسنا مسؤولين عن حياة من سيولد من الأحفاد بعد عقود أو قرون.

قد تكونين أنت غير مسؤولة، أما أنا فإنني مسؤول عنك وعن أولادي، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته". وقوله في حديث آخر: "يولد الإنسان على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه".

أتظنين أن تنصر من تنصر من أبناء وأحفاد المهاجرين المسلمين المقيمين في أوربا، أو من هو في طريق التنصر والذوبان، لا يرتبط سببيا بأبويه اللذين أنجباه وأنشآه في بلاد غير إسلامية؟؟

أنصحك يا أحمد بعدم التفكير في هذه المسائل لكونها تتعدى حدود طاقتك العقلية. وإذا أردت جوابا شافيا، فعليك بإمام المسجد أو خطيبه.

حسنا، سأفعل.

بقي أحمد ينتظر يوم الجمعة وصور الحلم لا تفارق مخيلته. وعندما حل اليوم المرتقب؛ ذهب إلى مسجد باريس المركزي. وبعد الانتهاء من الصلاة تقدم إلى الخطيب وحدثه في الموضوع فطمأنه الخطيب وهدأ روعه قائلا: لا تشغل بالك بمثل هذه الموضوعات، وعليك ببذل الجهود مع أولادك وأحفادك ما استطعت. ثم إن الهداية والاستقامة من عند الله، وكم من شخص يهتدي إلى الإسلام في بلاد النصارى، في حين ينحرف آخر عن دينه وهو في المغرب أو مصر أو باكستان.

لكن يا سيدي الخطيب هؤلاء أبناؤنا وأحفادنا الذين لا يصلون ولايصومون، ولا يتكلمون العربية، ولا يقبلون نصائحنا وتوجيهاتنا، ألسنا مسؤولين عنهم؟

اسمع يا أخي؛ إن المسؤولية ليست مسؤوليتك وحدك، وإنما هي مسؤولية الجميع. ثم إن مجيئك إلى فرنسا كان بقضاء الله وقدره.

لم يطمئن أحمد لهذا الكلام الذي لم يشف غليله، ورجع إلى بيته خائبا حزينا.

****

مرت الأيام والأسابيع وصور ذلك الحلم المشؤوم عالقة في مخيلة أحمد. وكلما وقعت عيناه على أطفال من أصول مغاربية يتكلمون الفرنسية، أو مراهقين من الجيل الثاني أو الثالث يختلون بفتيات فرنسيات، يشعر بأسى عميق في قلبه، وتتشعبه الهموم والكروب. إن هذه المشاهد وما يشبهها تؤثر في نفسه تأثيرا عميقا، وتهز كيانه وتضعضعه.

ولكي يخفف من وطأة الآلام النفسية، كثيرا ما يلجأ إلى بعض أصدقائه المغاربة المتقاعدين حيث، يتذاكر معهم حول ذكريات الطفولة والمراهقة في المغرب، أو حول أحداث الاستقلال السياسي المفعمة ببشائر الحرية التي خيمت على ربوع البلاد، والناس في القرى والمدن يحتفلون بأعراس الأفراح والانتصار......

وبدخول عقد الستينيات، قويت الهجرة من البوادي إلى الحواضر، ثم منها إلى فرنسا وبلجيكا وألمانيا... الكل يحلم بحياة سعيدة ومستقبل مشرق. وهكذا طفقت المعامل والمركبات الصناعية والعمرانية في أوربا، تستقبل الأيدي العاملة المغاربية، وتغريها بأجور مرتفعة.

كان أحمد من بين عشرات الآلاف من الشباب وقعوا ضحية هذا الإغراء، ولبوا نداء الهجرة، تداعبهم أحلام الربح والرخاء.

ففي صبيحة يوم 12 يونيو **1964**، استيقظ أحمد باكرا وهيأ حقيبته، واستعد للسفر في اتجاه مدينة الدار البيضاء. كانت أمه فاطمة في مطبخها تهيئ له الفطور، بعد أن أصبح فؤادها فارغا إلا من صورة ابنها هذا.

لما حضرت ساعة الفراق، عانقته، والدموع تنهمر من عيونها؛ إنها لحظات عصيبة تؤلم النفس ألما موجعا. ثم قالت له بصوت منكسر:

"احفظ نفسك يا بني، وعليك باليقظة والحذر، و لا تصاحب في بلاد النصارى إلا من تثق به وتطمئن إليه من المهاجرين المغاربة. أنت أكبر إخوتك، وأبوك، رحمه الله، كان يوصيني بك في مرض موته، ويقول: إن ولدي أحمد سيخلفني في الأسرة وسيتحمل مسؤوليتها..."

وصل أحمد إلى مدينة الدار البيضاء، فاتجه إلى محطة القطار. وبعد بضع ساعات، توقف القطار في محطته الأخيرة بمدينة طنجة، حيث ركب أحمد السفينة الرابطة بين ضفتي المغرب وإسبانيا، واجتاز مضيق جبل طارق، ونزل بمدينة الجزيرة الخضراء، ثم ركب قطارا آخر ويمم شطر مدينة باريس الفرنسية.

خلال سفره داخل المغرب، كان أحمد ينظر من نافذة القطار إلى سهول الغرب الواسعة، وأشجار البرتقال والأوكاليبتوس... وكلما وقع بصره على

قروية أو أولاد يلعبون، تذكر أمه وإخوته، فيهجم عليه الحزن والألم النفسي. بيد أن هذا الحال الكئيب المباغث، سرعان ما يتلاشى عندما يستحضر في مخيلته أحلام المستقبل.

بعد ما يقرب من يومين، وطئت قدما أحمد رصيف المحطة الجنوبية الكبرى لمدينة باريس، ثم بدأ يبحث في جيوبه عن ورقة كتب عليها بالفرنسية إسم وعنوان صديقه عبد الرحمن الذي سبقه إلى ديار الغربة قبل سنتين....

في غضون بضعة أيام، استطاع عبد الرحمن أن يعثر لضيفه على عمل في قطاع البناء. أقبل مهاجرنا الشاب على عمله بكل حيوية ونشاط وبدأ يكتشف حياة جديدة لا عهد بها. كل شيء وكل مظهر من مظاهر المجتمع الفرنسي مختلف تماما عما هو كائن في المغرب.

لقد أدرك للوهلة الأولى أن الأوربيين متقدمون جدا في العلم والتعليم والعمران، ووسائل النقل، وأسباب الراحة والترفيه، وما إلى ذلك من مظاهر الحضارة والرقي. إن هذه الأشياء التي لمسها وعاينها فور قدومه، أثرت في نفسه، وجعلته يشعر بالنقص والدونية إزاء الفرنسيين. كما أن جهله باللغة الفرنسية ضاعف من غربته ومعاناته.

لقد كانت وطأة الصدمة قوية، صدمة أحدثها في نفسه، الانبهار الشديد بقوة المدنية الأوربية، ومظاهرها المؤثرة والجذابة. تلك القوة والمظاهر التي تنصهر وتذوب في بوتقتها هويات وثقافات العمال المهاجرين، الذين قدموا من شمال ووسط إفريقيا، ومن بعض بلدان آسيا.

****

خرجت خديجة إلى سوق الحي لشراء ما تحتاج إليه من طعام وشراب، وتركت زوجها مستلقى على فراشه. لقد مرت شهور طويلة دون أن يستطيع نسيان ذلك الحلم المزعج. إن صوره ومشاهده أصبحت جزءا من ذاكرته وتكاد لا تغيب عن مخيلته ساعة واحدة.

يا إلهي متى سيطلع فجر جديد، أسعد فيه بذاكرة خالية من هذه الصور المؤلمة، وأستعيد نشاطي العقلي والنفسي، وأنظر إلى حياتي نظرة التفاؤل والرضا؟!!

يا إلهي متى ستتلاشى وتفنى هذه الأوهام والهواجس السوداء، التي مافتئت تؤلمني وتعذبني؟!! لماذا لا يشعر أصدقائي المغاربة بمثل هذه الآلام والأحزان.

إن لديهم مثلي أبناء وأحفادا ، لكنهم لا يحملون همهم، وقلما يكترثون بهويتهم ودينهم. بل منهم من لا يخفي إعجابه بابنه الذي نسج علاقة الصداقة والمودة مع فتاة فرنسي، أو ابنته التي ارتبطت بشاب فرنسي في مثل سنها.

إن هذه المظاهر من الاختلاط والذوبان لا تقلقهم ولا تزعجهم، بل إنها ترمز لدى كثير منهم إلى الحضارة والمدنية والرقي.

نعم، ما زلت أتذكر تلك الأحاديث والحوارات الطويلة حول مستقبل أبنائنا وأحفادنا في بلاد المهجر، حيث كان بعض أصدقائي يسخرون من تشبثي بضرورة الحفاظ على الهوية الإسلامية والمغربية لأبناءنا وأحفادنا، ويعتبرون أن انتقال الهوية من الآباء إلى الأبناء فالأحفاد أمر صعب جدا. وإذا نجح بعض بعض الآباء من المهاجرين المسلمين في تحقيق ذلك ولو جزئيا، فإن الغالبية العظمى عاجزة تماما، لاسيما أن المسؤولين سواء في أوربا أو في البلدان العربية ليس لديهم رغبة جادة في معالجة هذا الموضوع. مما سيؤدي لا محالة، إلى ذوبان نسل وذرية المسلمين المهاجرين في الشعوب والمجتمعات الأوربية.

إن أصدقائي هؤلاء قد استسلموا للواقع المر، واقتنعوا بأن أبناءهم وأحفادهم الذين ولدوا في فرنسا وترعرعوا فيها، لا يمكن أن "يتمغربوا" أويتبنوا الهوية الإسلامية باستثناء بعض مظاهرها أو جوانبها، لأن المنطق الاجتماعي يحكم بأن "الإنسان ابن بيئته".

ولقد حاول بعضهم الرجوع إلى بلاده فلم يفلح، لأن أبناءه رفضوا ذلك أو لم يستطيعوا التكيف في فضاء اجتماعي وثقافي غريب عنهم، خاصة إذا كانوا قد ولجوا مرحلة المراهقة.

لكن هل أنا وحدي الذي أعاني هذه الأزمة؟

لا لست وحدي، إن عبد القادر وعلي وعبد الرحمان الذين قدموا من مدينة مكناس في الفترة نفسها التي ودعت فيها وطني، لا يفارقهم الحزن، وتعلو محياهم كآبة لها علاقة بالموضوع. فكثيرا ما ألتقي بهم في المسجد، حيث يكثرون من الاستغفار وقراءة القرآن، ويتحاشون الحديث عن أبنائهم وأحفادهم. وقد أخبرني علي ذات يوم والدموع تنسكب من عينيه أن ابنته ثريا غادرت المنزل منذ شهور، ولا يدري أين ذهبت، وما مصيرها، كما أن أمها لا يرقأ لها دمع.

بقي أحمد يحلق بذهنه في فضاء باطنه النفسي، ويستدعي الصور والوقائع المتعلقة بموضوعه الرئيس، إلى أن أحس بقدوم زوجته التي اقتربت قائلة:

لم تبرح مكانك، ظننت أن هذا الصباح الربيعي قد دعاك للتجول بين أشجار حديقة الحي.

اسمعي يا خديجة؛ منذ خرجت إلى الآن وأن أسبح في عالمي النفسي المليء بالهواجس والأوهام، التي تولدت عن ذلك الحلم المشؤوم، ولست أدري كيف أضع حدا لهذه المعاناة، وكيف أتخلص من الكآبة الجاثمة فوق صدري؟

دلني يا خديجة عن وسيلة من الوسائل.

يا أحمد، لماذا لا تفكر في زيارة طبيب نفساني؟

طبيب نفساني؟

هل أنا مجنون؟ هل أنا أحمق؟ هل أنا مصاب بمرض عقلي.

لست مجنونا، ولا أحمقا،...يا عزيزي أحمد، لكن الطبيب النفساني يقصده الشخص الذي يشعر بتعب نفسي، أو لا يستطيع النوم لسبب من الأسباب، أو يحس بوطأة الانطوائية أو التشاؤم، أو بثقل صدمة نفسية، أو بقهر وسواس من الوساوس.....إلخ.

ما كنت أعلم أن لديك مثل هذه الأفكار يا خديجة!!

تعلمتها من الحياة في هذا البلد، ذلك لأن الأمراض النفسية منتشرة هنا ومألوفة بين الناس، ولا يستغرب منها أحد، وأطباؤها كثيرون. ثم إن جارتي حليمة قد أخبرتني منذ بضعة أيام، أن زوجها المتقاعد مثلك، كان يعاني أزمة نفسية لا علاقة لها بالغربة، لكنه زار طبيبا نفسانيا، فحدثه في الموضوع، وخضع للعلاج، ويبدو أن حالته النفسية تنبئ بالشفاء.

هل تعرفين اسم الطبيب؟

سأطلب منها اسمه وعنوان عيادته.

لم تتأخر خديجة عن زيارة جارتها حيث قصدتها بعد زوال اليوم ذاته وأحضرت اسم الطبيب وعنوانه. إنه يدعى د.كلود أمراني **Claude Amrani**، وعيادته موجودة في المقاطعة الثالثة عشرة.

وفي صباح الغد ركب أحمد سيارة الأجرة، وطلب من السائق أن يحمله إلى مكان الطبيب.

ظل واقفا إزاء باب العيادة وهو يتساءل مع نفسه:

لماذا أتيت إلى هنا؟ ماذا سأقول لهذا الطبيب؟ وهل سيفهمني؟ لغتي الفرنسية ضعيفة؟ وهل لديه اطلاع على مشاكل العمال العرب المهاجرين ومعاناتهم؟ لعل ما سأقدم عليه يكون عبثا؟ لكن حليمة أكدت أن زوجها تحسنت حالته النفسية بعد زيارته لهذا الطبيب.

ضغط على الجرس وما هي إلا بضع ثوان حتى استقبلته سيدة فرنسية قائلة:

تفضل يا سيدي، أنت محظوظ جدا لأنك ستقابل الطبيب دون موعد مسبق، ذلك أن أحد المرضى اتصل قبل دقائق، وطلب تأجيل موعد الزيارة. وهكذا ستأخذ أنت مكانه، وإلا كان عليك أن تنتظر أكثر من أسبوعين بسبب كثرة الزوار.

ألم أقل لك إنك محظوظ!!

- شكرا كثيرا.

- ما إسمك.

- أحمد شرقاوي.

- أنت عربي، أليس كذلك!!

- نعم، أنا مغربي.

- إن كثيرا من زوارنا من أصول عربية وإفريقية.

- كم سنك.

- **68** عاما.

- تفضل اجلس في قاعة الانتظار إلى أن يأتي دورك. وبعد ما يقرب من ساعتين سمع نداءها:

- السيد أحمد، يمكنكم الدخول إلى غرفة الطبيب.

- شكرا.

أشار الطبيب على أحمد بالجلوس بعد أن رد عليه التحية.

جلس أحمد وقلبه يخفق خوفا وعيناه جاحظتان، كأنه في جلسة استنطاق.

بادره الطبيب قائلا:

- أرى علامات الخوف والقلق قد ارتسمت على وجهك، لعلك تزور الطبيب النفساني لأول مرة.

- أجل.

- لا تخش يا سيدي شيئا، فالطبيب النفساني يعمل كل ما في وسعه لجلب أسباب الأمن والشفاء لمرضاه، كما أن الطب النفسي أصبح ضرورة من ضرورات حياتنا المعاصرة، فقلما تجد إنسانا في سن الكهولة والشيخوخة، لم يزر في حياته طبيبا نفسانيا. بل إن كثيرا من الشباب يلجؤون إليه عندما تتعقد حياتهم العاطفية، أو الاجتماعية، أو تحيط بهم مشاكل لا يستطيعون حلها أو تجاوزها. ويمكن القول؛ إن الطب النفسي غدا "موضة" من "موضات" هذا العصر.

والآن يمكنك يا سيدي أحمد، أن تحدثني بكل صراحة وعفوية عما يجيش به صدرك من هموم، أوما يعلق بنفسك من أفكار وهواجس مؤلمة دعتك لزيارتي.

في البداية، كما علمت، أنا لست من أصل فرنسي، وإنما مغربي من ضواحي مدينة الدار البيضاء، جئت إلى فرنسا سنة **1964** بحثا عن عمل يخول لي، خلال بضع سنوات، توفير قدر من المال، ثم أرجع إلى بلدي حيث أستثمره في مشروع تجاري. ذلك كان حلمي وحلم عشرات الآلاف من المغاربة آنذاك.

هذا الحلم أو الأمل، ظل يرافقني ويحذوني سنوات، ولعله كان الأنيس الوحيد في غربتي، ولولاه لما صبرت على العيش هنا سنة واحدة، فكان بالنسبة لي، خزانا روحيا أستمد منه الطاقة النفسية، وبلسما أضمد به جراحاتي النفسية عندما أهان أو أصاب بأذى، أو أمسي متألما؛ ضحية سلوك عنصري.

وقبل هذا وذاك، كان هذا الأمل بالنسبة لي موضوع حديثي النفسي الذي لا أمل مناجاته ، والسياحة في عوالمه، حيث أتخيل من خلاله رجوعي النهائي إلى بلادي، والشروع في استثمار ما جمعته من مال، فأنتقل بخيالي من بيت جميل أبنيه إلى ضيعة فلاحية أدير أشغالها، أو محل تجاري في حي من أحياء الدار البيضاء.

لكن هذا الأمل، لم يدم طويلا، إذ سرعان ما اختطفته يد المنية وأزهقت روحه.

– وكيف ذلك؟

– سيدي الطبيب: لقد اغتيل أملي، لا بل أنا الذي اغتلته عندما تزوجت وحملت زوجتي إلى هذا البلد.

– وهل كنت تفضل العيش وحيدا؟

– ليتني ما تزوجت، أو تركت زوجتي مع أهلها حتى أرجع إلى بلادي، كما فعل كثير من أصدقائي، مثل صديقي يوسف الذي غادر فرنسا منذ ما يقرب من عشرين سنة، حيث استقر في بلاده بعد أن اجتمع بزوجته وأولاده، وهو الآن سعيد في وطنه وبين أهله وعشيرته.

– لكن صديقك هذا، الذي تعتز، به قد عاش هنا حياة قاسية بسبب بعده عن أسرته، كما أن زوجته قد عانت معاناة شديدة لتحملها مسؤولية الأسرة وحدها، ولحرمانها من حماية الزوج، وشفقته، ودفء الحياة الزوجية ووجدانها. ثم إن الدراسات والأبحاث النفسية والاجتماعية في هذا الميدان، أثبتت أن الأسر التي تعيش هذا الوضع العائلي، تكون عرضة لهزات أو أزمات اجتماعية

وسلوكات خطيرة، منها انحراف الأبناء أو الزوجات، وكذلك الأزواج مما قد يؤدي إلى توتر العلاقات الزوجية أو إلى الطلاق....وفي أحسن الأحوال فإن أفراد هذه الأسرة يحيون حياة نفسية تفتقر إلى الأمن والسعادة. أليس كذلك يا عزيزي أحمد؟

- أجل لكن....

- لكن ماذا؟

إن المشاكل والأزمات الاجتماعية والنفسية التي ذكرها سيدي الطبيب تهون في رأيي إذا ما قورنت بالمشاكل والأزمات الخطيرة التي عرفتها الأسرة العربية المهاجرة في هذا البلد وفي كل بلدان أوربا.

إنها معضلة الاندماج والذوبان...

إنها أزمة الصراع بين الآباء والأبناء..

إنها أزمة الهوية...إنه ضياع ما بعده ضياع!!

هذه الأشياء الجوهرية التي تقلقني وتعذبني والتي هي سبب همومي وهواجسي.....

لقد دللتني على جانب أساسي من جوانب المشكلة التي تعانيها. نكتفي بهذا الحديث، ونلتقي إن شئت بعد أسبوع...

مع السلامة يا دكتور.

إلى اللقاء.

لاشك أن هذا المهاجر المغربي يشكو ألم الغربة، وألم أمل لم يتحقق، كما يشعر بأن هويته وهوية أبنائه مستهدفة، إلى غير ذلك من المشاكل والآلام التي يحسها معظم المهاجرين من أصول عربية وإفريقية. إن كثيرا من زبنائي المرضى، ينتمون إلى مجتمع المهاجرين.

نعم إن هؤلاء الأشخاص قد قدموا من بلدان تختلف لغة وثقافة ودينا، عن بلدان أوربا. همهم الوحيد هو كسب المال وجمع الثروة. بيد أن ضعفهم الثقافي، وقلة وعيهم، وتشبثهم بموروثهم الديني والاجتماعي، حال دون اندماجهم وتكيفهم في المجتمع الأوربي.

ولعل سببا آخر يعترض نجاح عملية أو مسلسل الاندماج؛ ذلك الذي يتعلق بطبيعة الحضارة الغربية وبمنطق النظام الرأسمالي عندنا، وهو سبب وجيه في هذا الميدان، وقلما يلتفت إليه الباحثون بله عموم الغربيين. ذلك أن الحضارة الغربية

انطلاقا من نزعتها المركزية، والتي أثبتتها الدراسات والأبحاث، خاصة في علوم النفس و الاجتماع والأنتربولوجيا، انطلاقا من بعض المفاهيم كالآرية والعولمة والتغريب الخ. لا تعترف بالثقافات الأخرى، وتعتبر ثقافتها أسمى الثقافات، بل يجب على الثقافات الأخرى أن تذوب وتنصهر في ثقافة الغرب.

هذا ما ينطق به مفهوم العولمة، ويمارسه جهاز التغريب. كما أن الرأسمالية بفلسفتها القائمة على الربح الفاحش، والجشع والاستغلال، قد أنهكت قوى الطبقات العاملة من الغربيين في كل بلاد الغرب، واستلبتهم، وألقت بهم في فلك الاستهلاك المقيت، فكيف بالعمال المهاجرين؟ لاشك أن استغلالهم يكون أبشع وأفضع.

بيد أن هناك مهاجرين آخرين، وإن كانوا قلة من أصل أسيوي، استطاعوا أن يتكيفوا ويندمجوا في الغرب إلى حد ما، مع أن لديهم موروثات ثقافية ودينية، وعادات اجتماعية مختلفة أيضا؟!!

وناذرا ما نسمع أن مهاجرا أسيويا وقع ضحية سلوك عنصري، أو صدرت منه أفعال تسيء إلى الحي الذي يقطن فيه، وعددهم في انجلترا يفوق بكثير عددهم عندنا في فرنسا، كما أن اندماجهم هنالك، شبيه باندماجهم عندنا.

نعم، قد يكون هؤلاء، على مستوى من الوعي والثقافة، أحسن حالا من المهاجرين العرب والأفارقة.

لكن ضعف المستوى الثقافي لا يكفي دليلا لتعليل ظاهرة العنصرية مثلا. كما أن عددهم الكبير مقارنة مع الأسيويين لا يعتبر أيضا سببا حاسما.

ولعل السبب الأساسي والقوي، يرجع إلى الصراع الديني والثقافي القديم بين المسيحية والإسلام، وهذا ما نستنتجه من خلال بعض المقالات الصحفية والتآليف الاستشراقية وبعض وسائل الإعلام. وهي ظاهرة بدأت تنمو انطلاقا من الثورة الإيرانية، ثم بلغت ذروتها مع أحداث **11** شتنبر **2001**.

إن لاشعور الإنسان الغربي مليء بصور مخيفة ووحشية عن الإسلام والمسلمين، تلك الصور التي تراكمت وترسخت في باطنه، عبر قرون طويلة. وخلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، أدرك الغربيون المفعمون بمعاني العلمانية والديمقراطية والليبرالية والتقدم العلمي، أن الدين قد ولى وانمحت آثاره. لكنهم فوجئوا، في العقود الأخيرة، بيقظة سياسية وثقافية ودينية، في جل البلدان الإسلامية، أساسها الدين والهوية الدينية.

وكان من نتائجها؛ اندلاع الثورة الإيرانية، وظهور الأحزاب السياسية الإسلامية، وتطور المؤسسات والجمعيات التربوية والاجتماعية ذات الصبغة الدينية، إلى غير ذلك من المظاهر التي اعتبرها الغرب من أكبر التحديات المعاصرة لحضارته وثقافته. فشرع يفكر في الوسائل الناجعة والمناسبة لمواجهة هذه المظاهر. وبعد أحداث شتنبر **2001**، أعلن الغرب ما سماه: "الحرب على الإرهاب"، ويقصد بذلك الجماعات الإسلامية المسلحة، والإيديولوجيات الدينية المعادية للحضارة الغربية.

إن هذه الأحداث الدينية والسياسية، وما نتج عنها من مواقف سياسية وعسكرية في الغرب، انعكست بظلالها السوداء على الوضعية الاجتماعية والسياسية للمهاجرين من أصول عربية في بلدان الغرب. ومما لا شك فيه أن أحمد وزملاءه من المهاجرين المغاربة، يكتوون بنار هذا المناخ السياسي والاجتماعي. وهكذا تنتشر عندهم وعند أبنائهم، أنواع من السلوكات الشاذة، كالعنف، وكراهية المجتمع، ورفض الانضباط، والثورة على الآداب والقوانين العامة، كما تفشو عندهم الأمراض النفسية الناتجة عن أزمة الهوية الدينية والثقافية.

****

مر أسبوع على اللقاء الأول الذي لم يستفد منه أحمد شيئا، وبقي ينتظر اللقاء الثاني آملا أن يعثر فيه على ضالته.

وفي صبيحة يوم الزيارة، انتابته بعض الشكوك في جدوى مقابلة الطبيب، وكاد يعرض كليا عن ذلك لولا تدخل خديجة التي طمأنته وأخبرته بأن العلاج النفسي لا يثمر عن لقاء واحد، وإنما يحصل بعد لقاءات وزيارات، ونصحته بالصبر والشجاعة.

وفي الساعة الخامسة بعد الزوال؛ ساعة الموعد الثاني، كان أحمد في قاعة الانتظار، ثم أذن له بالدخول على الطبيب.

تفضل سيدي أحمد بالجلوس، لقد فكرت في أمرك طويلا، كما قرأت بعض الأبحاث والمقالات التي تعالج موضوع الهوية عند المهاجرين العرب والأفارقة، ووقفت على حقائق كثيرة كنت أجهلها، وعلمت أن هوية هؤلاء المهاجرين مثخنة بجراحات الغربة، كما تئن تحت وطأة الصراع بين ثقافتين. كما علمت أيضا أن المهاجر العربي المقيم في أوربا شبيه بشجرة اجتثت من أرضها لتغرس في أرض لا تلائمها. لكن ما أود معرفته الآن هو التالي:

هل واجهك حدث، أو مشكلة نفسية أو اجتماعية كانت السبب المباشر فيما تعانيه من آلام وهموم متعلقة، كما ذكرت، بالضياع وأزمة الهوية؟ أم أن هذه المعاناة كانت نتيجة طبيعية لتراكم مشاكل ومتاعب الهجرة والغربة؟

إن كل ما ذكرته صحيح، والأمران متداخلان ومتلازمان: فالحدث الحاسم قد وقع، وكون المعاناة كانت نتيجة طبيعية لتراكم مشاكل ومتاعب الهجرة والغربة، أمر لا جدال فيه.

وما هذا الحدث الحاسم؟

إنه حلم مخيف ومهول!!!

أخبرني عن هذا الحلم؟

لقد رأيت في منامي منذ بضعة شهور، أني جالس على مقعد مقابل باب كنيسة نوتردام، وبينما أنا أتأمل ضخامة الباب وزخرفته، إذا به يفتح ثم خرج منه قسيس يرافقه جماعة من الأطفال بين سن الثامنة والعاشرة، كلهم يحملون الصلبان على صدورهم، لكنني فوجئت بوجود حفيدتي دينا بينهم، وكذا حفيد أحد أصدقائي الجزائري. فذهلت وأحسست في قلبي بما يشبه طعنة خنجر مسموم، وانتبهت من نومي مذعورا....وفي الصباح ذكرت الحلم لزوجتي وأنا

أجهش بالبكاء فحاولت أن تهدئ من روعي وتطيب خاطري لكن دون جدوى....

ومع الأيام تحول الحلم إلى كابوس يلازمني في يقظتي، ويزعجني أحيانا في نومي كما أفرز هواجس نفسية خطيرة ومؤلمة.

لماذا تحول الحلم إلى كابوس وأعقبته هواجس نفسية مؤلمة؟

لأنني استيقنت من خلاله ما كنت أشك فيه من قبل.

ما الذي استيقنته؟

استيقنت بأن أحفادي وأحفاد أحفادي ومن سيأتي بعدهم، لن يكونوا على ديني ودين أجدادهم، ولن تربطهم أي صلة بموروث آبائهم الحضاري والثقافي، وسينمحي ذكرهم، بعد أن يذوبوا في مجتمع الهجرة. وسيصبحون جزءا منه يتكلمون لغته ويمارسون تقاليده وأعرافه، ويدينون بدينه.

هذا هو الكابوس الذي يلاحقني ويطاردني.

أنا الجاني، أنا المسؤول عن هذه الكارثة العرقية والاجتماعية، وعن هذا الانحراف العقدي والثقافي، وعن قطع الشجرة من جذورها.

هون عليك يا أحمد، ولا تخضع عقلك لأفكار أصلها حلم، ولا تحمل نفسك مسؤولية غيرك.

أنا لا أخضع عقلي للأحلام الواهية، لكن هذا الحلم له ما يصدقه في أرض الواقع. ذلك أن الانسلاخ عن الهوية الدينية والثقافية عند أبناء المهاجرين وأحفادهم أمر أبين من فلق الصبح، ولا يختلف فيه اثنان، والمهاجرون الآباء يحسون بفظاعة هذا الانسلاخ ويتجرعون غصصه، ولا حول لهم ولا قوة. ويكفي أن أذكر لك مؤشرا واحدا؛ وهو زواج كثير من ذكور أبناء المهاجرين وأحفادهم بالفرنسيات وإناثهم بالفرنسيين، إن هذا الزواج المختلط يحدث شروخا عميقة في صرح هويتهم قبل أن يجهز عليها تماما.

أما قولك إني مخطئ لكوني أحمل نفسي مسؤولية غيري فهو كلام في رأيي غير صحيح، لأن مسؤولية الأبوين تجاه الأبناء واجب كبير، وفي ديننا الإسلامي أن الأب مسؤول بالدرجة الأولى عن زوجته وأبنائه..

أظن أنك تبالغ في بعض كلامك، وبالتالي تتجاوز حدود الحقيقة والواقع. ذلك أنني لا أشاطرك الرأي في كون هؤلاء الأبناء والأحفاد سيقطعون الصلة نهائيا بأصولهم العربية، وثقافة ودين آبائهم وأجدادهم. نعم قد يتخلون عن كثير من رموز ومظاهر موروث آبائهم الديني والثقافي، تحت ضغط البيئة الاجتماعية

والثقافة الغربية، وفي سبيل التكيف السليم في المجتمع الذي نشأوا فيه. بيد أن هذا السلوك لا يمنعهم من الحفاظ على هويتهم العربية، والاعتزاز بها والدفاع عنها. كما أن قانون حرية الأديان والثقافات في بلادنا، يعطي الحق لكل مواطن أن يدين بالدين الذي يختاره ويطمئن إليه، والثقافة التي تعجبه وتستهويه.

فهؤلاء اليهود في فرنسا وفي كل بلدان الغرب، يمارسون ديانتهم ويعلمونها أبناءهم وأحفادهم ويحيون حياة مدنية غربية، دون ذوبان أو انسلاخ عن الهوية اليهودية.

وهناك فرنسيون بوذيون انتقلوا من المسيحية إلى البوذية، ولديهم أبناء وأحفاد تربوا على الإيمان بالبوذية وحبها وممارستها. ولديهم نوادي وجمعيات وأماكن للعبادة، كما أن لليهود نواديهم وجمعياتهم وبيعهم وللمهاجرين العرب والأفارقة المسلمين من النوادي، والجمعيات والمؤسسات التربوية، والمساجد وأماكن العبادة ما يفوق المئات. فكيف تدعي أنهم انسلخوا عن هويتهم، وأنهم ذابوا في المجتمع الغربي وهذه الجمعيات والمؤسسات والمساجد شواهد مادية على تمسكهم بثقافتهم وهويتهم ودينهم.

سيدي الطبيب؛ أرى أنه لا علم لك بمن يرتاد هذه المؤسسات والجمعيات والمساجد، إن الذين يؤمونها جلهم من الجيل الأول، ومن العجزة والمتقاعدين.

وبالنسبة لأفراد الجيل الثاني فإن حضورهم ضعيف جدا، أما الجيل الثالث فلا نسبة على الإطلاق، لكونهم لا يتكلمون اللغة العربية ولا الدارجة المغربية، ولذا فإنهم يعدمون وسيلة التواصل مع الموروث الديني والثقافي لآبائهم وأجدادهم.

أفهم من كلامك أن الآباء لم يحرصوا على تعليم أبنائهم لغتهم، كما أن تلك الجمعيات والمؤسسات التربوية والثقافية والمساجد، لا تقوم بدور فعال في هذا الميدان، وهو تقصير كبير في حق الأجيال الناشئة، في حين نجد اليهود في فرنسا وغيرها من بلدان الغرب أحرص الناس على الأمر، بحيث لا يتكلمون مع أبنائهم وفيما بينهم إلا بلغتهم العبرية، والتي من خلالها ينتقل الموروث الديني والثقافي من الآباء إلى الأبناء.

إن اليهود يملكون السياسة والعلم والمال و النفوذ، فليس غريبا أن يصدرمنهم هذا الحرص والاعتزاز بلغتنهم ودينهم، أما نحن المهاجرون المسلمون فإن حكوماتنا ضعيفة ومستضعفة و شعوبنا يغلب عليها الجهل والتخلف.

كما أننا لا نفكر هنا للأسف، إلا في جمع المال وادخاره، ولذلك ضيعنا تراثنا ودينا وحرمنا أبناءنا منهما. لقد طغى علينا الجشع والطمع والجهل حتى صرنا أذلة في هذه البلاد.

ألم أقل لك سيدي الطبيب، أننا مسؤولون بالدرجة الأولى عن وضعنا، ووضع أبنائنا وأحفادنا، المزري و المشؤوم؟

غدا سيتلاشى ذكرنا، وسينقطع خبرنا، وسينصهر أحفادنا في بوتقة المجتمع الفرنسي، حضارة ودينا وسلوكا، كما حصل للمورسكيين في إسبانيا، قبل بضعة قرون. ما أتعس هذا المصير، الذي بدت بوادره، وانتشرت أعلامه.

هذا هو الكابوس الذي يخيفني، وكاد يقطع أنفاسي.

أنا المخطئ، أنا المذنب، أنا المسؤول.

– أراك تعبت كثيرا، وأخشى عليك الانهيار النفسي. لا تفكر في هذا الأمر، وارجع إلي بعد أسبوع، أرجو أن أهتدي إلى علاج لحالتك النفسية.

****

لا شك أن مهاجرنا المغربي يعاني عقدة الذنب، تلك العقدة التي استغرقت أقطار نفسه، وصار يتنفس من خلالها. وتجسدت في باطنه هواجس وأحلام مزعجة، لا تنفك توخزه وتقلقه.

إنه شديد الارتباط والتعلق بهويته وثقافته الأصلية، ويتألم كثيرا لتنكر وتجاهل أبناء وأحفاد المهاجرين المسلمين لتلك المقومات، وانجذابهم إلى الثقافة والمدنية الغربية. بيد أنه لن يستطيع إيقاف التيار الجارف، لا سيما أن مستوى الوعي والثقافة، في الوسط الاجتماعي للجاليات المسلمة، ضعيف جدا، كما أن نشاط منظماتهم وجمعياتهم ومؤسساتهم لا يرقى، على ما يبدو، إلى المستوى المطلوب، ولا يستقطب من الأجيال الشابة، إلا النزر اليسير.

انصرف أحمد إلى منزله وهو يسترجع الحوار الذي دار بينه وبين الطبيب، ذلك الحوار الذي حاول من خلاله إقناع الطبيب برأيه فيما يتعلق بالمسؤول الأول عن انحراف أبناء وأحفاد المهاجرين المسلمين، وانسلاخهم عن هويتهم، وبالعمل الفاشل الذي تقوم به الجمعيات والمنظمات التابعة للجالية العربية، وكونها غير قادرة على الأخذ بأيدي أولئك التائهين الضائعين، ومنعهم من الذوبان في المجتمع الفرنسي.

لقد أحس بنوع من الاعتزاز والثقة بالنفس، عندما استطاع الرد على طبيبه والدفاع عن آرائه. لكنه، من جهة أخرى، لم يسمع من هذا الطبيب كلاما أو نصيحة عملية تخفف عنه ما يشعر به من قلق نفسي، وما يتملكه من هواجس باطنية رهيبة.

عندما وصل إلى بيته، سألته زوجته خديجة عن نتيجة اللقاء الثاني بالطبيب، فأخبرها بالحوار الساخن الذي جرى بينهما حول موضوع أبناء وأحفاد المهاجرين المسلمين ووضعهم المأساوي. فقالت:

- ومتى سيعالج هذا الطبيب مرضك النفسي!! ألم تحك له ما تعانيه من قلق وهموم، وأن حياتك النفسية أضحت فريسة أحلام وهواجس مخيفة!!

أجل، أخبرته بكل ذلك، لكنه غير مجرى الحديث، وانتقل من موضوعي النفسي إلى موضوع أبناء المهاجرين المسلمين، باعتبار أن مشكلتي النفسية لها ارتباط بهذا الموضوع.

وهل بدأت تشعر بانفراج أو بتحسن نفسي؟

ليس هناك أي تحسن، لكني آمل أن نصل، من خلال هذا الحديث، إلى نتيجة إيجابية، تلقي بظلالها على أزمتي النفسية.

****

بقي أحمد ينتظر، بلهفة شديدة، قدوم يوم اللقاء الثالث، ويحذوه أمل الشفاء والتخلص مما هو فيه من القلق والمعاناة.

اقترب موعد اللقاء فتوجه أحمد كعادته نحو العيادة. استقبله الطبيب، وأذن له بالجلوس قائلا، وهو يرفع من معنوياته:

تفضل بالجلوس يا صديقي المناظر المقتدر!!

أحمد: لقد فاجئتني بهذا الوصف الذي لا يليق بي ولا أستحقه.

الطبيب: إن معاناتك النفسية، وصدق اهتمامك بالموضوع الذي يقلقك، ويقض مضجعك، هما اللذان صيراك، في رأيي مناظرا مقتدرا، ولو كنت مشتغلا بالصحافة، أو التأليف، لكتبت أشياء وحقائق مهمة مرتبطة بموضوع الهجرة العمالية في فرنسا.

يا سيدي أحمد، لم تخبرني بعد عن السبب الحقيقي الذي ولد هذا الخوف العميق المتعلق بما تعتبره مأساة أبناء وأحفاد المهاجرين المسلمين.

إن الحلم الذي ذكرته لي في اللقاء السابق، ينطوي على دلالات عميقة، ويرمز إلى أبعاد تلك المأساة، كما تتصورها وتتمثلها في عقلك. لكنه يعكس،

انطلاقا من تصورك الوجداني للموضوع ووضعك النفسي القلق، ما يسمى في علم النفس الحديث ب "عقدة الذنب"، أي لديك شعور بأنك ارتكبت إثما كبيرا عندما اعتبرت نفسك أنت وغيرك من الآباء المهاجرين المسلمين، السبب الرئيس الذي تمخض عنه ما تسميه مأساة الجيل الثاني، والثالث، والرابع، وهكذا من أبناء المهاجرين المسلمين. أليس كذلك؟

أحمد: نعم سيدي الطبيب، وأخالك تقترب من جذور مشكلتي النفسية.

الطبيب: ألا يمكنك التخلص من هذا الشعور بالذنب، الذي هو مصدر هواجسك ومخاوفك؟

أحمد: ليس الأمر سهلا كما قد تتصور سيدي الطبيب.

الطبيب: ولماذا؟

أحمد: لأن الأمر يتعلق بإيماني وعقيدتي الإسلامية.

الطبيب: وكيف ذلك؟

أحمد: إن في كتابنا المقدس؛ القرآن، آية تقول: "يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة"، أي أن الله يحملنا، في هذه

الآية، مسؤولية أنفسنا وأزواجنا وأولادنا. بحيث ينبغي علينا امتثال أوامره ووصاياه المتعلقة بالحفاظ على الدين والعقيدة الإسلامية.

وإذا قصرنا في هذا الجانب، وضيعنا الأوامر والوصايا، كما هو حالنا، وحال أبنائنا، فلا ريب سينالنا وعيد خالقنا، وتكون العاقبة وخيمة.

الطبيب: لكنني أعلم أن الإله، في كل الديانات السماوية، رحيم بعباده.

أحمد: كما أنه شديد العقاب.

الطبيب: إن إيمانك بهذه الأفكار، يقف حجر عثرة في طريق علاجك وتخلصك من الهواجس والأوهام، فإما أن تنبذها، وإما أن تستعطف خالقك وتتمسك بأغصان الرحمة الإلهية.

أحمد: أما نبذ الآيات والوصايا الدينية، التي سميتها أفكارا، فهو ردة ومروق عن الدين. وأما الاعتصام بالرحمة الإلهية، فهو مسلك مفيد ونافع، لكنني لا أراه مخلصي تماما من الشعور بالذنب، والتفريط في المسؤولية تجاه الأبناء.

الطبيب: ألم تلاحظ يا سيدي أحمد، أن لقبي **Amrani** أمراني، ليس من أصل فرنسي، وإنما هو من أصل عربي؟!

أحمد: هل هذا صحيح؟

الطبيب: أجل، وأغلب الظن أن أحد أجدادي قدم، منذ عقود طويلة من شمال إفريقيا، واستقر في فرنسا. ولقد بحثت في موضوع الهجرة من دول الشمال إفريقية إلى فرنسا ووجدت أن مئات الآلاف من الأشخاص هاجروا من تلك البلدان إلى بلادنا في منتصف القرن التاسع عشر؛ أي قبل الحرب العالمية الأولى ببضعة عقود. ثم ازداد عددهم أثناء الحربين العالميتين وبلغ ذروته بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وخلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين....

وإن شئت فتصفح دليل الهواتف بباريس، حينئذ ستعثر على آلاف الأسماء الفرنسية مقرونة بألقاب عربية، وكل أصحاب هذه الأسماء ينحدرون من أ صل عربي، وقد تفرنسوا منذ عقود، وما أظن أن شخصا منهم يحمل أحد أجداده مسؤولية تفرنسه وانسلاخه عن هويته الأصلية ودينه العربي القديم!! بل لا يفكر في هذا الموضوع، ولو شاء لبحث فيه وقد يرجع إلى أصله !!...ثم ما يدريك، لعله بعد تفرنسه وتمسحه، عاد إلى أصله القديم قبل مجيء الإسلام إلى شمال إفريقيا !!، حيث كان أهل هذا البلد من البرابرة الوثنيين والمسيحيين واليهود، هذا ما يحدثنا به التاريخ. ومثل ذلك وقع في إسبانيا منذ بضعة قرون، حيث رجع كثير من الموركسيين الإسبان إلى مسيحيتهم الأولى، التي كانوا عليها قبل دخول الإسلام إلى شبه جزيرة إيبيريا....

أحمد: سيدي الطبيب لقد انبهرت بكلامك وسعة ثقافتك، وإطلاعك وقدرتك على التحليل.

لكنني شعرت بألم عميق لما أخبرتني بأصلك العربي، وألفيتني أمام نموذج حي من النماذج التي رمز إليها ذلك الحلم المزعج الذي تحقق قبل أن أراه!!

ودع أحمد طبيبه عازما على عدم الرجوع إلى عيادته، ذلك أنه لم يظفر بعلاج لهواجسه ووساوسه، وتيقن بأن كثيرا من الحالات النفسية كحالته، تستعصي على الأطباء النفسانيين. وأدرك أن منطق هؤلاء الأطباء يستلهم روح الحضارة الغربية وآلياتهم قد لا تلائم نفسية المريض ذي الأصول الشرقية، أو الذي تربى في أحضان ثقافة وحضارة لها خصوصيات مختلفة.

بيد أن الشيء الوحيد الذي أثار انتباهه، وصدمه في الوقت نفسه، كون الطبيب ذاته ينحدر من سلالة عربية، وأن أحد أجداده هاجر إلى فرنسا منذ عقود طويلة...

هذا المشهد المفاجئ الذي أسدل الستار على المقابلة الثالثة، أثر كثيرا في باطنه، لأن أحمد وجد نفسه أمام صورة حية لما يدل عليه حلمه المزعج، فلم يجد

بدا من مغادرة العيادة، وانصرف حزينا وهو يحس بآلام الجرح الدفين، ويجر أذيال الخيبة.

مرت بضعة أيام على آخر لقاء مع الطبيب النفساني، وذهن أحمد لا يفتر عن التفكير في الموضوع المقلق، وكل يوم يكتشف أحداثا ومشاهد اجتماعية جديدة متعلقة بأبناء وأحفاد المهاجرين المسلمين، تؤكد له المصير المظلم والتعيس الذي ينجذبون نحوه.

ألا من مخلص لهؤلاء الضحايا البؤساء؟

ألا من بطل... يضع حدا لهذه المأساة الرهيبة التي تتفاقم يوما بعد يوم؟

مأساة الهوية، مأساة جيل بل أجيال!

مأساة الذوبان! مأساة الفناء، لكأني أنظر إلى ديناصور ضخم يجتاح أحياء المهاجرين المسلمين في فرنسا ويبتلع أبناءهم وأحفادهم!

الفصل الثاني:

حوار بين مقيم ومهاجر

إقامة المسلم في بلاد النصارى وأثرها في السلوك والعقيدة

حكم الإقامة في بلاد النصارى

رد على اعتراض

حوار بين مقيم ومهاجر

قال أحد المهاجرين العرب في أوربا:

لقد بدأ الإسلام في العقود الأخيرة ينتشر انتشارا واسعا في كثير من بلدان النصارى، ولعل السبب في ذلك وجود مئات الآلاف من المسلمين العاملين والمقيمين مع أسرهم في هذه البلدان، حيث الاحتكاك والتأثر المتبادل بين الطرفين، مما نتج عنه إقبال عدد كبير من الأوربيين على الإسلام، وهذه الظاهرة لم تكن معروفة قبل هجرة العمال المسلمين إلى أوروبا والإقامة فيها.

وما دام الأمر كذلك، فإن إقامة المسلم في هذه البلاد تبدو ضرورية إن لم تكن واجبة؟! لأن المسلم العربي ينبغي أن يساند أخاه المسلم الأوربي. ويشد أزره كي تقوى بينهما الأخوة الدينية، مما يساعد على نشر الإسلام وإقامة الدولة المسلمة؟!!

فأجابه صديقه المقيم في بلاده :

قولك إن انتشار الإسلام في بلدان النصارى سببه وجود المسلمين العاملين في هذه البلدان، قول يفتقر إلى دليل، ورأي سقيم بعيد عن السداد والصواب.

والقول الراجح والمحكم في هذه المسألة، هو ما أثبته الدارسون المتخصصون في كتاباتهم وأبحاثهم حول هذه الظاهرة، بعد أن وقفوا على حقيقة الأمر

وجليته، فاتضح كما يتبين الصبح لذي عينين. لقد أكد هؤلاء الدارسون أن سبب إقبال الغربيين على الإسلام يرجع بالدرجة الأولى، إلى عوامل داخلية متعلقة بطبيعة الحضارة الغربية المعاصرة، تلك الحضارة التي فقد فيها التوازن بين الجانبين المادي والروحي في الإنسان، حيث طغى الجانب الأول على الثاني بعد أن حيل بين هذا الإنسان وبين القيم الروحية والإيمانية، بسبب الفلسفة العلمانية. فانتشرت الأمراض والعقد النفسية وكثرت المشاكل الأسرية والاجتماعية، واستفحل الانتحار والعنف والإرهاب، وظهرت فلسفات التمرد والغثيان.

كل هذه الظواهر المرضية وغيرها نجمت عن ذلك الاختلال بين العنصرين الجوهريين: المادي والروحي وتغليب العنصر الأول على الثاني.

وهكذا اندفع الإنسان الغربي؛ بسبب وطأة الفراغ الروحي؛ يبحث في الثقافات، والفلسفات، والديانات العالمية، لعله يعثر عن دواء أو بلسم. فمنهم من أصبح بوذيا، ومنهم من عكف على ممارسة اليوكا، أو ما أشبهها من الرياضات والفنون الروحية الأسيوية، وانخرط آخرون في جمعيات ومنظمات روحية، أو صوفية، أو تلك التي لها علاقة بالجن والشياطين، والبعض الآخر، الذي هو بيت القصيد؛ بحث في الإسلام فوجد فيه ضالته وراحته، كما أكد أولئك الدارسون أن البحث العلمي والثقافي السائد اليوم عند الغربيين،

بالإضافة إلى المؤسسات والمعاهد العلمية المتخصصة في التراث الإسلامي، كل هذا يعتبر من العوامل الممهدة لقبول الإسلام والدخول فيه. كما لم يغفل هؤلاء الباحثون عامل الصحوة الإسلامية وما صاحبها من وقائع وأحداث ومنعطفات تشير إلى مظاهر اليقظة في البلدان الإسلامية، الأمر الذي أثار انتباه الغربيين ودعاهم لمزيد من البحث والدراسة.

هذه باختصار أهم العوامل التي، في نظر الباحثين المتخصصين، تكمن وراء إسلام الغربيين. نعم قد يدخل شاب أوربي في الإسلام بسبب زواجه من بنت عربية أو أندونيسية تنتمي إلى عائلة مسلمة مهاجرة، أو بسبب علاقة إنسانية طيبة جمعته بشاب أو رجل مسلم مهاجر، لكن هذه الحالات تعتبر نادرة ولا ترقى إلى مستوى عامل من العوامل الأساسية في نشوء ظاهرة الإسلام في الغرب.

وهب أن إقامة المهاجرين المسلمين في بلاد أوربا والغرب، تعتبر العامل الأساسي الذي دفع بكثير من الغربيين إلى الدخول في الإسلام، أليس من الخسارة والدمار، أن ينسلخ مآت الآلاف من أبناء وأحفاد المسلمين المهاجرين، عن دينهم وهويتهم، كي تدخل، جدلا، جماعات من الغربيين في الإسلام، والقاعدة الفقهية تقول: "الضرر لا يزال بالضرر"، كما تقول: "درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة".

إن ذلك المسلم المهاجر الذي يفرح عندما ينظر إلى شخص أوربي قد دخل في الإسلام، ينسى أن أبناءه أو أحفاده لا يعرفون عن الإسلام، شيئا ويخضعون لتربية علمانية صارمة، ويتنفسون في مناخ ثقافي واجتماعي لا ديني، وهم بذلك أميل وأقرب إلى التنصر والكفر، الذي فر منه ذلك الأوربي المسلم، وهذا المشهد الغريب يذكرني بقوله تعالى: (وإن تتولوا يستبدل الله قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم). [سورة محمد، الآية:39].

فقال المهاجر:

إذا كان المهاجرون المسلمون المقيمون في الغرب ليس لهم، كما ذكرت، دور مهم في جلب الغربيين إلى الإسلام، أفلا ترى معي أن هؤلاء الغربيين المسلمين محتاجون إلى مؤازرتنا ومساندتنا خاصة أنهم أصبحوا غرباء في بلدانهم؟!

فأجاب المقيم:

إن المسلم المهاجر في أوربا أحوج إلى المؤازرة والمساندة، ذلك أن حياته الاجتماعية تستدعي الرحمة، والشفقة، والمواساة، وبيته الأسري المتصدع أوهن من بيت العنكبوت، ومعاناته النفسية والاجتماعية، بلغت حدا لا يطاق تنفطر لها القلوب رحمة، وتسيل لها العيون رأفة، ويبكي لها الحجر الأصم.

فكيف يؤازر ويساند من هو مهيض الجناح خائر القوى؟

ثم إن هذا الأوربي الذي أقبل على الإسلام ليس ضعيفا في بلده، أو مظلوما، ولا يحتاج إلى مؤازرة أحد، بل يشق طريقه في الحياة بقوة الإيمان والعلم، بعد أن أكرمه الله بنعمة الإسلام.

أما أنت يا عزيزي المهاجر المسلم، يا من كانت "هجرته لدنيا يصيبها" تأمل حالك وحال أبنائك وأحفادك، وأين أنت وأولادك من الصلوات الخمس في جماعة كما أمر الله؟ ومن إتيان الحلال واجتناب الحرام؟

أين أنت وأبناؤك من قراءة القرآن وصلة الأرحام؟

أين أنت من الولاء والبراء؟

أين أنت؟ أين أهلك وأبناؤك؟ ما هو مصير الأبناء؟ والأحفاد وأحفاد الأحفاد؛ إنه التلاشي، الذوبان، الله، الله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال المهاجر:

لو كان بلدي أحسن من بلد النصارى لما فارقته، ولو كانت أخلاق ومعاملة المسلمين بعضهم لبعض أحسن من معاملة الأوربيين بعضهم لبعض لما حصلت عندي الرغبة في الهجرة ولما فكرت فيها البتة، لكن جذبني عدل هؤلاء بعد أن قهرني ظلم أبناء جلدتي.

قال المقيم:

ذكرت أن الأوربيين يتصفون بالعدل، والأخلاق الفاضلة، والمعاملة الحسنة، فلماذا يمارسون العنصرية ضد المهاجرين العرب والأفارقة ويحتقروهم، ويسندون إليهم الأعمال الصعبة والشاقة، التي يأبى العمال الأوربيون مزاولتها، ويمنعوهم من ممارسة الشعائر الدينية كما أمر الله، حيث لا يبيحون لهم الأذان عند الصلاة، ويحاربون حجاب المرأة، ويكرهون أبناءهم على التربية العلمانية الفاسدة الهدامة، ويتهموهم بالعنف والإرهاب وكل الصفات الذميمة إلى غير ذلك مما لا أذكره الآن.

قال المهاجر:

إن العنصرية التي يمارسها بعض النصارى في بلاد الغربة، لا يذهب ضحيتها إلا من لا يحترم نفسه، ولا ينضبط بضوابط المدينة، من المهاجرين العرب والأفارقة السود، أما المهاجرون الذين يحترمون قوانين البلاد، ويعرفون ما لهم وما عليهم، ولهم رغبة صادقة في الاندماج، فلا يتعرضون للأذى. أما الأعمال الصعبة أو الحقيرة، التي يشتغل بها هؤلاء المهاجرين صحيحة فإنها تناسب مستواهم الاجتماعي والثقافي، ومؤهلاتهم المهنية المتواضعة أو الضعيفة، فكيف تسند إليهم أعمال ليسوا أهلا لها، أو لا يمكنهم القيام بها؟

أما عن الممارسة الدينية، فإن المساجد وأماكن العبادة موجودة في معظم الأحياء التي يقطن فيها المهاجرون المسلمون، بيد أن الغربيين لا يتحملون سماع

الأذان، أو النظر إلى المآذن والصوامع، كما تشمئز نفوس المسلمين عندما تقع أعينهم على كنيسة في بلادهم الإسلامية، أو تقرع آذانهم الأجراس والنواقيس، ثم إن الإيمان في القلب فليس من الضروري أن يعبر المسلمون المقيمون في أوربا عن دينهم وشخصيتهم الإسلامية بكل المظاهر والسمات التي يتصفون بها في بلدانهم، خاصة وهم تحت سلطة حكومات وقوانين علمانية. أما التربية العلمانية في المدارس والمعاهد والمؤسسات، فإنها تعبر عن إرادة واختيار أصحابها، وما دام المسلمون المهاجرون يقيمون في بلاد الغرب. ويعتبرون هم وأبناؤهم مواطنين كغيرهم من الغربيين، فإن عليهم أن يحترموا شروط المواطنة ومبادئها حيث أن الدولة هي المسؤولة عن تربية رعاياها ومواطنيها مهما كان أصلهم أو لونهم أو دينهم، تربية تنسجم مع ثقافتها وحضارتها. فليس من المنطقي أن تنادى أقلية مسلمة مستضعفة بإيجاد ومنح تربية إسلامية أو شرقية لأبنائها من المواطنين أوروبيين وإن كانوا من أصول عربية مسلمة؟!

إنما يمكن للمهاجر المسلم أن يلقن أبناءه مبادئ الإسلام وأركانه، وشعائره، فلا أحد يمنعه من ذلك. إلا أن الإيمان كما قلت مقره القلب، وليس من الضروري الإعلان والإشهار، وممارسة بعض السلوكات، أو الظهور بمظهر إسلامي، لا يرضي الأوربيين، بل يثير بواطنهم، فتحدث ردود الأفعال التي عادة ما توصف بالعنصرية والاعتداء؟!

فأجاب المقيم: فهمت من كلامك أن على المسلم المهاجر في بلاد الغرب أن يحترم قوانين وآداب البلاد التي يقيم فيها، ويسعى إلى الاندماج السليم في المجتمع الغربي النصراني، وذلك من خلال تقبل ثقافته وتقاليده، واستيعاب مبادئ التربية العلمانية التي يدعو إليها ويربي عليها أبناءه، وأن ينبذ أو ينسلخ ولو ظاهريا، من كل السمات والمظاهر التي توحي بأنه مسلم، كي لا يصطدم بالآخرين. ولا يكون هدفا لسخريتهم، أو إيذائهم. وتبين لي أن تصريحك هذا يدل على أن الدين بالنسبة للمسلم المهاجر في بلاد الغرب، ليس ضروريا، وأن مكانه لا يتعدى دائرة قلبه وذلك في مقابل رضا النصارى.

كما استنتجت كلامك أيضا أن أبناء المسلمين وأحفادهم الذين نشأوا في بلاد الغرب وترعرعوا فيها، لا تصلح لهم إلا تربية الغرب وثقافته، وأن مسألة الذوبان والانسلاخ عن الهوية الدينية أثر حتمي وواقعي، لا يمكن دفعه، كما أنه لا يشكل خطرا على هؤلاء الأبناء والأحفاد مادام أنه اختيارهم. وهذا يذكرني بحديث النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال: "يولد الإنسان على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه"2.

---

2 - حديث صحيح.

لقد صدق الحبيب المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى؛ إذ ما يفعل هؤلاء المهاجرون المسلمون في الغرب بأبنائهم وأحفادهم - إلا من رحم الله -؟! ألم يسلموهم للغربيين النصارى كي يفعلوا بهم ما يشاؤون؟.

كم من شباب الجيل الثاني أو الثالث ذكورا وإناثا، تزوجوا بالأوربيات والأوربيين، وكونوا أسرا على النمط الغربي العلماني، وأنجبوا أولادا أشباه نصارى أو علمانيين أو ما شئت. أو ليس الآباء المسلمون المهاجرون هم المسؤولون بالدرجة الأولى عن تنصير أو علمنة أبنائهم وأحفادهم؟

أو لسنا أمام موريسكيين جدد في طريقهم إلى الذوبان والانصهار ثم الاندثار؟!!

ثم بعد بضعة عقود قد ينطق حفيد من الجيل السادس أو السابع قائلا: قيل لي أن أصلي عربي، وأن جدي الأول الذي قدم من المغرب أو مصر أو....كان مسلما، تماما كما يعترف الآن عشرات الآلاف من الأندلسيين أو الإسبان المسيحيين حيث يقولون إن أصولهم عربية وأن أجدادهم كانوا مسلمين!!!!

قال المهاجر:

أظن أنك تنظر إلى مستقبل المهاجرين وأبنائهم بعيون سوداء، عندما تقارن أو تماثل بين أجيالنا اللاحقة وبين الموريسكيين الذين تنصروا بعد خروج المسلمين من الأندلس. والحال أن الفرق بين طبيعة المجتمعين: مجتمع المهاجرين المسلمين

الآن ومجتمع المورسكيين، كبير جدا، ذلك أن هؤلاء المورسكيين كانوا يخيرون بين التنصر أو الموت والنفي، في حين لا أحد من الأوربيين يجبر أحدا من المهاجرين المسلمين على الخروج من دينه، أو الدخول في النصرانية وبعبارة أخرى؛ إن المجتمع الأوربي في العصور الوسطى، حيث الجهل والظلمات وسيطرة الكنيسة على العقول والنفوس، مجتمع ولى إلى غير رجعة. فالعلم قد حل محل الجهل، كما حلت الحرية الفكرية والدينية محل الاستبداد الكنسي، فمن أراد من الأوربيين الدخول في الإسلام فالباب مفتوح، ومن مالت نفسه إلى البوذية فسيجد من يدله على السبيل، ومن اعتقد الإلحاد ونفى وجود الإله، فهو حر في اعتقاده، ولا يعدم من يسانده ويوجهه، فالفلسفات الإلحادية كثيرة. والمهاجر المسلم الذي يريد الحفاظ على دينه لا يجد من يمنعه من ذلك، فأماكن الصلاة متوفرة، والقرآن موجود. بل يمكنك أن تقتني ما شئت من النسخ، في حين أنه كان ممنوعا في زمن المورسكيين، بل تعاقب الكنيسة كل من وجد عنده نسخة منه وكانت تضطهد من يصلي، أو يعلم أبناءه اللغة العربية، إلى غير ذلك من مظاهر الظلم والاستبداد، ومحاولات سلخ المورسكيين عن هويتهم الدينية والثقافية، تلك المظاهر التي لا وجود لها في أوربا اليوم أليس كذلك يا صديقي المقيم؟

أجاب المقيم:

كلامك صحيح لكنه لا يخلو من السذاجة والسطحية فقولك مثلا: "إن الحرية الفكرية والدينية قد حلت محل الاستبداد الكنيسي"، قول فيه نظر، ذلك لأن الحكومات الأوربية لا تعامل الطوائف الدينية المتواجدة في أرضها على قدم المساواة، فاليهود، أو البوذيون أو عباد الشياطين، أو غيرهم من أصحاب الملل، لو أرادوا تأسيس مقر أو مكان لممارسة عبادتهم، فإن تلك الحكومات تستجيب على الفور. في حين إذا تعلق الأمر ببناء مسجد تقام فيه الصلاة فإنها تعارض معارضة قوية، كما أن وسائل الإعلام المحلية، تجعل من بناء هذا المسجد قضية خطيرة، تهدد أمن وهوية وثوابت البلاد، وهي بذلك تثير شعور الحقد، والكراهية، في نفوس الأوربيين، مما يغذي عامل المسلمين العنصرية ضد المهاجرين المسلمين، وما يقال عن المسجد يمكن أن يقال عن حجاب الفتاة أو المرأة المسلمة فكلاهما مستهدف، في حين لا يستهدف اليهودية أو البوذية أو ديانة أخرى، فأين الحرية الفكرية أو الدينية التي ذكرت؟

ألا يدل هذا على استبداد كنسي جديد تدعمه حكومات تدعي الديمقراطية والحرية؟

لست أرى فرقا جوهريا بين الاستبداد القديم والاستبداد المعاصر. أما من حيث الشكل فالفرق بينهما يكمن في أن الاستبداد الأول كان وحشيا ومباشرا في حين أن الاستبداد المعاصر، يعمل غالبا في خفاء، كما يتستر في لباس

الديمقراطية والحرية أو العلمانية. أما من حيث النتائج فتكاد تكون متماثلة أي فيما يخص الابتعاد عن الدين، فأبناء وأحفاد المورسكيين ابتعدوا عن دينهم ودين آبائهم وأجدادهم شيئا فشيئا، وكذلك يفعل أبناء وأحفاد المهاجرين المسلمين اليوم إلا من رحمه الله تعالى.

إن عامل الإكراه على الانسلاخ من الدين والهوية، الذي كان مباشرا فيما مضى، أصبح اليوم غير مباشر حيث أن أبناء الأجيال الجديدة واللاحقة من المهاجرين المسلمين، يشعرون بانسلاخهم عن دينهم وهويتهم لكونهم انسجموا مع ثقافة ومدنية المجتمع الأوربي الذي نشأوا فيه. ثم إنهم عندما يحسون بكراهية هذا المجتمع لثقافة ودين آبائهم يزدادون نفورا من كل ما يتعلق بذلك، كي لا يشعروا ببعض الآلام النفسية المرتبطة بازدواجية الشخصية. إن هذا هو منطق العلاقة بين القوي والضعيف ومنطق مقولة "الإنسان ابن بيئته".

الإقامة بين النصارى المشركين وأثرها في السلوك والعقيدة

مقـــدمـــة:

"الإنسان ابن بيئته"، مقولة ونظرية اجتماعية ومنطقية لا يستطيع عقل نفيها، أو إبطالها، فكل إنسان نشأ وعاش في قرية أو مدينة، إلا ويربطه بفضائها المادي والمعنوي علاقات اجتماعية، وثقافية، وعقدية، ونفسية، شديدة العمق والتشابك والارتباط، لا يستطيع الانفكاك عنها، أو التنكر لها، أو الاستمرار في الحياة بدونها. وهذا ما أكده الفلاسفة والمفكرون في الحضارات القديمة، وأثبته علماء الإسلام وفقهاؤه قديما وحديثا. كما تناول هذا الموضوع علماء الاجتماع والنفس المعاصرون في دول الغرب، وبسطوا القول فيه، وظهرت آلاف البحوث الاجتماعية، النظرية والميدانية، المتعلقة بـــ "الإنسان ابن بيئته".

نعم، قد يقطع الإنسان صلاته بمجتمعه أو يضع حدا لعلاقاته الاجتماعية، وقد يتجاهل أو يتنكر لجوانب أساسية في ثقافته الأصلية لأسباب كثيرة، منها : استبدال العقيدة، كما يحدث حاليا لكثير ممن يدخلون في الإسلام من النصارى الغربيين، ومنها الانتقال والهجرة من بلد إلى بلد آخر، خاصة إذا كان البلد

المهاجر إليه يختلف اجتماعيا وحضاريا وعقديا، عن البلد الأول. وهو ما ينطبق تماما على المهاجرين المسلمين، من العرب والعجم المقيمين في بلاد غير المسلمين.

إن هؤلاء المهاجرين المسلمين الذين يقيمون في مجتمعات تختلف ثقافيا، واجتماعيا، ودينيا عن مجتمعاتهم الأصلية، معرضون لا محالة لهزات وأزمات نفسية خطيرة ورهيبة، خاصة إذا كانوا لا يرغبون في استبدال ثقافتهم التي نشأوا عليها وتربوا في أحضانها بثقافة المجتمع الجديد.وبما أن مقولة "الإنسان ابن بيئته" لا ترحم، والسنن والقوانين الاجتماعية تتسم غالبا بصفتي القسر والحتمية، فإن هؤلاء المهاجرين يؤدون ثمن هجرتهم باهضا، حيث يتجلى ذلك في المعاناة الناجمة عن التصادم الثقافي والعقدي في مجتمع الهجرة، خاصة أن هذا المجتمع لا يقبل ثقافة وعقيدة المهاجرين المسلمين، بل يستعمل آليات الإكراه النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والقانونية، لدفعهم للتنكر لثقافتهم وعقيدتهم وللانسلاخ عنهما، كما أن الثقافة الغربية بحكم نزعتها المركزية لا تعترف بالثقافة الإسلامية الشرقية، بل تصرح بكراهيتها وعدائها لها، وهذا أمر أبين من فلق الصبح، ويمكن ملاحظته وتأكيده من خلال الاطلاع على ما تنشره وسائل الإعلام، وما يكتبه المستشرقون وغيرهم من الكتاب الغربيين، حول قضايا الإسلام وثقافة المسلمين، وحياتهم الاجتماعية والسياسية. كل ذلك انطلاقا من "النزعة المركزية"، التي هي لسان حال الثقافة الغربية.

ثم إن الغربيين عموما يكرهون العرب والمسلمين، لأسباب تاريخية وعقدية يعرفها الخاص والعام. أما خرافة العلمانية أو الإلحاد، أو المادية الجدلية، أو الاشتراكية والشيوعية، أو ما شابه ذلك من المفاهيم الفلسفية، التي أفرزتها الثقافة الغربية في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، فإنها لم تستأصل جذور العقيدة المسيحية المحرفة من نفوس الغربيين، ولم تمح المنطق الصليبي من ذاكرتهم. فالمسيحية الصليبية بشكل من الأشكال، ما زالت تؤثر في بواطنهم وبنيتهم اللاشعورية. والمنطق الصليبي لا ينفك حاضرا في سلوكهم، ومواقفهم السياسية تجاه المسلمين والعالم الإسلامي، بل هو ألزم لهم من ظلهم. أما ما يتبجحون به من شعارات: ديمقراطية، حقوق الإنسان، الحوار الحضاري والديني، فكله تمويه وهراء. وما يقع الآن على أرض العراق وسوريا، وأفغانستان، وفلسطين، من مجازر، وقتل، وهدم، وتشريد للأسر، وإبادة للقرى والمدن وما يحاك ضد الإسلام عقيدة وثقافة باسم "محاربة الإرهاب"، ليس إلا دليلا من بين مئات الأدلة على أن عقيدة القرون الوسطى المسيحية ما زالت تسري في دماء الغربيين، وأن روح الصليبية تغذي إلى يوم الناس هذا، نفوس النصارى من الأوربيين والأمريكيين وغيرهم بالحقد والكراهية تجاه المسلمين.

هذه الحقائق الجوهرية يجهلها أو يتجاهلها المهاجر المسلم في بلاد المهجر، وهي السبب الرئيس في ما يعانيه من ظلم، وعنصرية، وتهميش، واستلاب، واغتراب، وضياع للهوية.

إنه وضع أليم جدا، وله مضاعفات اجتماعية، ونفسية، وسلوكية خطيرة. لكن مهاجرنا قلما يلتفت التفاتة صحيحة إلى علاقته بربه وخالقه، أو قلما يحلل وضعيته القاسية في بلاد المهجر، مستضيئا بالمفاهيم والتصورات الإسلامية، أعني أن مهاجرنا لا يبحث عن أسباب وضعيته انطلاقا من منظومة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، وانطلاقا من حدود وطبيعة هذه العلاقة على ضوء الشريعة الإسلامية، وهل إقامته بين ظهرانيهم قد تكون أحد الأسباب الرئيسة فيما آلت إليه حالته الاجتماعية والنفسية.؟

هذه التساؤلات قلما تخطر على بال مهاجرنا المسلم. وإذا حضرته يوما ما فإنها لا تستوقفه، ولا يستجيب لإثارتها، ولا يعمل عقله فيها لأسباب عدة.

إن هذا المهاجر عندما خرج من المغرب أو الجزائر أو باكستان، أو ...بحثا عن العمل، وقصد فرنسا أوبلجيكا أو بلدا غربيا آخر، لم يكن يفكر إلا في كسب المال، بغض النظر عن كونه كان فقيرا أو غير فقير. فالهدف دنيوي مائة في المائة، وبالتالي فإن المرجعية الدينية، أو حكم الشريعة في هذه الهجرة، ليس مطروحا البتة، ولا وجود لأثره في وعي صاحبنا.

نعم، إن المسؤولية ملقاة على عاتق أولي الأمر والمسؤولين، وعلى عاتق العلماء، ولكنها، بالدرجة الأولى، مسؤولية المهاجر نفسه؛ قال تعالى: {بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} سورة القيامة (14-15)

موقف فقهاء المسلمين ممن يعاشر النصارى المشركين ويخالطهم في بلدانهم :

إن العامل المسلم المهاجر المقيم في بلاد الغرب إقامة غير اضطرارية، سلك بسبب ذلك سلوكا غير محمود في نظر الشريعة الإسلامية، ترتب عنه نوع من الضعف العقدي والإيماني، والانحراف الأخلاقي، وميل نحو التشبه بالنصارى في كثير من المعاملات والمظاهر الاجتماعية والسلوكية. قال الله تعالى {وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} (113) سورة هود. قال الإمام القرطبي : ""الركون حقيقة هو الاستناد... قال قتادة وعكرمة معناه : " لاتودوهم ولا تطيعوهم... قال ابن جريج : "لا تميلوا إليهم". قال أبو العالية : "لا ترضوا أعمالهم". وكله متقارب. وقال ابن زيد والسدي : "الركون هنا الادهان، أي لا تداهنوهم، ولا تصانعوهم، ولا تنافقوهم؛ وذلك بأن لا ينكر عليهم كفرهم، ويقول لهم ما يرضيهم ... ، والظاهر أن ذلك مراد من الآية".

وجاء في تفسير "الكشاف" لجار الله الزمخشري: ولا تركنوا متناول للانحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم؛ أي بأن يخضع وينحط لهم ويجيئهم على ريحهم

إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم، والرضى بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، ومد العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم""3.

وقال تعالى {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} (22) سورة المجادلة. قال ابن عطية : "نفت هذه الآية أن يوجد من يؤمن بالله تعالى حق الإيمان، ويلتزم شعبه على الكمال، أن يوادَّ كافرا أو منافقا. ومعنى يوادّ؛ يكون بينهما من اللطف بحيث يود كل واحد منهما صاحبه، وعلى هذا التأويل، قال بعض الصحابة : "اللهم لا تجعل لمشرك قِبَلِي يدا، فتكون سببا للمودة. "4.

ومودة النصارى وغيرهم من الكفار والمشركين، تؤدي إلى تعظيم شأنهم وإعلاء مكانتهم ومنزلتهم، وجعلها فوق منزلة المسلمين، وذلك بذكر قوتهم، ومدح حضارتهم وصناعتهم، ووصفهم بالعدالة والمروءة والشهامة، وغيرها من الأوصاف التي لا تنبغي إلا للمسلمين الأتقياء. ومن جهة أخرى، تؤدي تلك المودة إلى احتقار المسلم نفسه والمسلمين أجمعين، وإلى الحط من شأنهم ومنزلتهم، وهذا ما لا يجوز لمسلم أن يقدم عليه ويفعله، مهما كان وضع المسلمين

---

[3] جعفر ابن ادريس الكتاني المغربي (المتوفى سنة1322 هـ)، "الدواهي المدهية للفرق المحمية، بحث في السياسة الشرعية"، تحقيق محمد حمزة الكتاني، منشورات دار الكتب العلمية بيروت، ط. 2، 1426 هـ2005 م، ص : 35.

[4] الدواهي المدهية، المرجع السابق، ص : 146.

ومستواهم الحضاري والاجتماعي، لأن فعل ذلك خيانة، ونفاق، ودناءة، وجهل عظيم بنعمة الهداية والإسلام، رغم غربة الدين وأهله.

ولطالما استمعت إلى كلام من هذا القبيل، على لسان كثير من العمال المغاربة المقيمين في باريس وضواحيها، عندما كنت طالبا في هذه المدينة، أهيئ بحثا جامعيا حول الهجرة العمالية هناك، وذلك في ثمانينيات القرن العشرين الميلادي. أعني أن تعظيم الغربيين النصارى والحط من شأن المسلمين، سلوك مألوف لدى أغلبية عمالنا المهاجرين وأبنائهم في بلاد الغرب.

ثم لما أشرب كثير من المهاجرين المسلمين في قلوبهم حب الغربيين النصارى، واستحضروا عظمة ملكهم ودولتهم، مالوا إليهم وركنوا إلى حياتهم، واستحسنوا جل ما يتعلق بعاداتهم وتقاليدهم، وأسلوب عيشهم، حتى شاركوهم في كثير من أعيادهم؛ مثل عيد رأس السنة الميلادي، فتجد بعضهم يسهرون ليلة هذا العيد في الشوارع والمقاهي والأندية ومراكز اللهو. وكثير منهم يشربون الخمور خاصة من أبناء الجيل الثاني والثالث، ويرقصون على نغم الموسيقى، ويختلون بالفتيات الأجنبيات إلى غير ذلك من مظاهر الخلاعة والاستهتار. كما لا يتورع كثير من المسلمين الذين يحترفون التجارة في ديار أوربا، أن يشتروا كثيرا من الأشياء التي يقتنيها النصارى في أعيادهم، ثم

يبيعونهم إياها طلبا للربح. وهذا عمل شنيع ومذموم ومنهي عنه شرعا، بالاضافة إلى كونه يقدح في دين المسلم ويزري به.

قال الفقيه جعفر ابن ادريس الكتاني : ""وقد اتفق أهل العلم على أنه لا يجوز الحضور معهم في شعائر دينهم. قال سيدنا عمر : "اجتنبوا أعداء الله في عيدهم".

وقال عبد الملك بن حبيب في "الواضحة"؛ (كتاب من أمهات كتب الفقه المالكي): "سئل ابن القاسم عن الركوب في السفن التى تركب فيها النصارى إلى أعيادهم، فكره ذلك مخافة نزول السخط عليهم بشركهم الذي اجتمعوا عليه، ورآه من تعظيم عيدهم وعونهم لهم على كفرهم. ألا ترى أنه لا يحل للمسلمين أن يبيعوا لهم شيئا من مصلحة عيدهم لحما ولا قوتا، ولا يعارون دابة ولا يعانون على شيء من دينهم، لأن ذلك من تعظيم شركهم وعون لهم على كفرهم؟. وينبغي للسلاطين أن ينهوا المسلمين عن ذلك". قال : "وهو قول مالك وغيره، لم أعلم أحدا اختلف فيه"5.

أما الأعياد الإسلامية فيكاد لا يحس بها المهاجرون وأبناؤهم، ويكون الاحتفال بها باهتا جدا، وخاليا من المسحة الدينية، والدفء الوطني؛ حيث لا

---

5 الدواهي المدهية، المرجع السابق، ص : 58.

تزاور ولا تراحم، وانعدام كل المظاهر المعنوية والاجتماعية المتعلقة بالأعياد الإسلامية.

يستفاد من كلام هؤلاء الفقهاء والمفسرين رحمهم الله، أن المسلم الذي يخالط النصارى وغيرهم من أصحاب الشرك، وذوى الملل الكافرة والوثنية، ويقيم معهم ويساكنهم ويجاورهم في مدهم وقراهم، سيتأثر بهم لا محالة، وسيضطر مع الزمن، إلى مصانعتهم ومداهنتهم، والرضى بأعمالهم، والخضوع لهم، ثم التشبه بهم، والتزيي بأزيائهم. وهكذا إلى أن يتعود على كثير من خصالهم المذمومة وأخلاقهم الدنيئة، خاصة إذا كان ضعيفا بينهم، أومهانا وحقيرا.

أقوال الفقهاء في عمل المسلم عند الكافر:

لعل أكثر الانحرافات المتعلقة بالسلوك والأخلاق لدى معظم المسلمين وأبنائهم القاطنين في بلاد الغرب، ترجع إلى الاختلاط بالنصارى والعمل عندهم. جاء في كتاب "مدونة الفقه المالكي وأدلته" في باب "العارية" : "ولا تجوز إعارة المسلم لكافر ليخدمه، لأن إذلال الكافر للمسلم لا يجوز، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه"[6].

وجاء في الكتاب نفسه، في باب "الإجارة"، مبحث إجارة المسلم لغير مسلم : "يحرم على المسلم أن يأجر نفسه في خدمة الكافر بحيث تكون يده تحت يده... لأن في ذلك إذلالا للمسلم. وتفسخ الإجارة إذا انعقدت، فإن وقعت ومضت كان للأجير أجرة مثله لأنه عقد باطل"[7].

""وقال ابن دقيق العيد : "وكذلك لا يكون المسلم عندهم خادما ولا أجيرا، ويؤمر عليه وينهى".

---

[6]- د. الصادق عبد الرحمن الغرياني؛ "مدونة الفقه المالكي وأدلته"؛ مؤسسة الريان، بيروت، ط1، 1423هـ-2002م، ج1، ص : 36-37

[7]- الكتاب نفسه، ص : 524.

وفي "الأقوال المهمة في أحكام أهل الذمة" لأبي البركات بن الفاقيه : "ويحرم على المسلم إجارة نفسه لأهل الذمة، لأن في ذلك إذلالا وسبيلا على المسلم. وقد قال الله تعالى {وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} (141) سورة النساء""8.

وإذا كانت إجارة المسلم نفسه لأهل الذمة، انطلاقا من كلام الفقيه أبي البركات، محرمة ولا تجوز، فإجارته نفسه لكافر غير ذمي لا تجوز من باب أولى، والله أعلم.

ومعلوم أن الذميين من اليهود والنصارى، كانوا في بلدان المسلمين يعاملون معاملة حسنة، إلا أن مترلتهم الاجتماعية كانت دون مترلة المسلمين، لأنهم كانوا كفارا وتحت حكم المسلمين، ومع ذلك لم يجوز الشارع للمسلم أن يكون أجيرا عندهم حتى لا تنحط أخلاقه، وتتأثر عقيدته بملابسته ومخالطته لهم، وحتى لا تهان عزة المسلم وكرامته، لأن الذمي المستأجر قد يصدر منه تجاه أجيره المسلم ما لا يرضاه الله ورسوله.

---

[8] الدواهي المدهية، المرجع السابق، ص : 62.

أما المعاملة التي يعامل بها المسلمون الأجراء في أوربا، فإنها معاملة يندى لها الجبين، وكلها قائمة على العنصرية والكراهية والاستغلال، إلى غير ذلك من ألوان العنف والإرهاب، واعتداء على هويتهم الدينية والثقافية.

ومن نتائج اختلاط المسلمين المهاجرين في أوربا وغيرها بالنصارى والعمل، عندهم انتشار زواج كثير منهم بالنساء الأوربيات، مع ما يترتب عن ذلك من انحرافات أخلاقية ومشاكل أسرية خاصة فيما يتعلق بالأطفال والأبناء، أو اتخاذهن خليلات مما يجعل الزنا يستفحل في صفوفهم.

والأدهى والأمر، وما يدمى القلب ويشيب له الولدان، هجرة النساء والفتيات العربيات إلى أوربا، حيث يعملن خادمات في بيوت النصارى، أو منظفات وعاملات في المقاهي والمطاعم والحانات، وما يشبه ذلك من الأعمال الحقيرة. ولا تسأل عما يقع لهن من التحرش الجنسي والمراودة والاغتصاب، بل منهن يمارسن البغاء مع النصارى بمحض إرادتهن طلبا للمال. ولقد بلغ من استفحال هذه الظاهرة أن كتبت بعض الصحف الأجنبية حول الموضوع، وأشارت إلى أن الزانيات الأوربيات في بعض المدن يشتكين من تدفق الزانيات العربيات ومزاحمتهن لهن في عقر دارهن ؟؟.

كما أقدمت الفتيات والنساء المعربيات على الزواج بالأوربيين النصارى، مستخفات بمبادئ الدين والشريعة الغراء.

إن هؤلاء الفتيات والنساء المغربيات المقيمات في أوربا، واللاواتى يقدرن بعشرات الآلاف9، يعتبرن وصمة عار في جبين الوطن العربي، كما يعبرن بذلك عن مدى ما وصلت إليه المرأة المغربية المهاجرة من الجهل والغباوة، وانحراف في السلوك والأخلاق والعقيدة، تلك الفتاة أو المرأة الطائشة التي مزقت حجاب الأنوثة والحياء، وتنكرت للأعراف المغربية العريقة، المتعلقة بكرامة المرأة، وشرفها، وطهارتها، واجتازت وحدها بحر الزقاق، لترتمي في أحضان الرذيلة، وتعيش على فتات الموائد، والمثل العربي يقول : "تجوع الحرة ولا تزني بثدييها".

"تفيد إحصائيات السكان وتحقيقات علماء الاجتماع، بأن العادات والتقاليد العائلية للمهاجرين تشبه تقاليد أكثرية العائلات الفرنسية التي تعيش ظروفا حياتية مشابهة، ولقد تزايد عدد الجزائريين الذين يتزوجون من الفرنسيات بين عامي **1965** و **1982** إلى ثلاثة أضعاف ما كان عليه الحال قبل ذلك، ومعاشرة الرجال الفرنسيين للنساء المغربيات في المرحلة نفسها زادت عشرة

---

[9] انظر: د. كنزة الغالي "نساؤنا المهاجرات في إسبانيا "كتاب الجيب" عدد 42، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2004.

أضعاف. وإذا أخذنا في الاعتبار تحريم الدين لهذه العلاقات، يمكننا أن نكون فكرة عن واقع الانهصار !"[10].

"ومن اللافت للنظر أيضا أن هجرة المرأة أصبحت منذ بداية العقدين الأخيرين من هذا القرن، ظاهرة تستوجب الاهتمام، حيث وصلت نسبتها إلى ما يناهز 45 بالمائة من مجموع المهاجرين، لاسيما بعد أن اكتسبت حظا من التعليم والتكوين يدفعها إلى البحث عن العمل خارج وطنها، بعد أن يئست من الحصول عليه. وقد ترتب عن اتساع هذه الظاهرة، شيوع زواج المغربيات المسلمات من غير المسلمين. وهذا ما يزيد في تعميق ظاهرة الانسلاخ من الهوية الوطنية والدينية، ومن أحكام الشريعة الإسلامية وقيمها في تكوين الأسرة المغربية وحمايتها"[11].

لقد أصاب الدكتور محمد الكتاني في إشارته إلى ما يترتب عن زواج المغربيات المسلمات من غير المسلمين، من "تعميق ظاهرة الانسلاخ من هوية الوطنية والدينية ومن أحكام الشريعة الإسلامية"، لكون هذا الزواج محرما شرعا، ولا يجوز الإقدام عليه، لكنه لم يكن موفقا في كلامه عندما قال : "...لا

---

[10] الإسلام والمسلمون في فرنسا، محمود خداقلي يور وفهيمة وزيري، ص : 104.

[11] د. محمد الكتاني : "مشكلات الهجرة وانعكاساتها في المجتمع المغربي"، مداخلة في "ندوة هجرة المغاربة إلى الخارج"، أعدتها الأكاديمية المغربية سنة 1999، مطبعة المعارف-الرباط، 2000، ص : 30.

سيما بعد أن اكتسبت حظا من التعليم والتكوين يدفعها إلى البحث عن العمل خارج وطنها بعد أن يئست من الحصول عليه...". أقول : "يا ليتها لم تكسب حظا من التعليم والتكوين يدفعها إلى التمرغ في حمأة الرذيلة، وإلى التعرض للإهانة من خلال ممارسة الأعمال والأشغال الدنيئة والحقيرة التي أشرت إليها آنفا. بيد أنها ما تعلمت وما تكونت، ومتى كانت التعليم والتربية يدفعان بالإنسان إلى ارتكاب الفواحش والمحرمات ؟ !!.

حكم الإقامة في بلاد النصارى

سئل فضيلة الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - عن حكم الإقامة في بلاد الكفار فأجاب بقوله : الإقامة في بلاد الكفار خطر عظيم على دين المسلم ، وأخلاقه ، وسلوكه ، وآدابه وقد شاهدنا وغيرنا انحراف كثير ممن أقاموا هناك فرجعوا بغير ما ذهبوا به ، رجعوا فُسّاقـًا ، وبعضهم رجع مرتدًا عن دينه وكافرًا به وبسائر الأديان ــ والعياذ بالله ــ حتى صاروا إلى الجحود المطلق، والاستهزاء بالدين وأهله السابقين منهم واللاحقين ، ولهذا كان ينبغي بل يتعين التحفظ من ذلك ووضع الشروط التي تمنع من الهويّ في تلك المهالك .

فالإقامة في بلاد الكفر لابد فيها من شرطين أساسين :

الشرط الأول : أمن المقيم على دينه بحيث يكون عنده من العلم والإيمان ، وقوة العزيمة ما يطمئنه على الثبات على دينه، والحذر من الانحراف والزيغ، وأن يكون مضمرًا العداوة الكافرين، وبغضهم مبتعدًا عن موالاتهم ومحبتهم ، فإن موالاتهم ومحبتهم مما ينافي الإيمان قال الله ــ تعالى ــ : " لا تجد قومـًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم" (المجادلة/22) .

وقال ــ تعالى ــ : " يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين" (المائدة/51 ــ 52) .

وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : [أن من أحب قومــًا فهومنهم، وأن المرء مع من أحب].

ومحبة أعداء الله عن أعظم ما يكون خطرًا على المسلم لأن محبتهم تستلزم موافقتهم واتباعهم ، أو على الأقل عدم الإنكار عليهم ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : [من أحب قومــًا فهو منهم] .

الشرط الثاني : أن يتمكن من إظهار دينه بحيث يقوم بشعائر الإسلام بدون ممانع ، فلا يمنع من إقامة الصلاة والجمعة والجماعات إن كان معه من يصلي جماعة ومن يقيم الجمعة ، ولا يمنع من الزكاة والصيام والحج وغيرها من شعائر الدين ، فإن كان لا يتمكن من ذلك لم تجز الإقامة لوجوب الهجرة حينئذ ، قال في المغني صــ457 جــ8 في الكلام على أقسام الناس في الهجرة : أحدها من تجب عليه وهو من يقدر عليها ولا يمكنه إظهار دينه ، ولا تمكنه إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار فهذا تجب عليه الهجرة لقوله تعالى : (إن الذين

توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا)(النساء/97) .

وهذا وعيد شديد يدل على الواجب ، ولأن القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وبعد تمام هذين الشرطين الأساسين تنقسم الإقامة في دار الكفر إلى أقسام :

القسم الأول : أن يقيم الدعوة إلى الإسلام والترغيب فيه فهذا نوع من الجهاد فهي فرض كفاية على من قدر عليها، بشرط أن تتحقق الدعوة وأن لا يوجد من يمنع منها أو من الاستجابة إليها، لأن الدعوة إلى الإسلام من واجبات الدين وهي طريقة المرسلين وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه في كل زمان ومكان فقال صلى الله عليه وسلم : " بغلوا عني ولو آية " .

القسم الثاني : أن يقيم لدراسة أحوال الكافرين والتعرف على ما هم عليه من فساد العقيدة ، وبطلان التعبد، وانحلال الأخلاق ، وفوضوية السلوك ؛ ليحذّر الناس من الاغترار بهم ، ويبيّن للمعجبين بهم حقيقة حالهم ، وهذه الإقامة نوع من الجهاد أيضًا، لما يترتب عليها من التحذير من الكفر وأهله المتضمن للترغيب في الإسلام وهديه ،لأن فساد الكفر دليل على صلاح

الإسلام ، كما قيل : وبضدها تتبين الأشياء ؛ لكن لابد من شرط أن يتحقق مراده بدون مفسدة أعظم منه ، فإن لم يتحقق مراده بأن منع من نشر ما هم عليه والتحذير منه فلا فائدة من إقامته ، وإن تحقق مراده مع مفسدة أعظم مثل أن يقابلوا فعله بسب الإسلام ورسوله الإسلام وأئمة الإسلام وجب الكف لقوله تعالى : " ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوًا بغير علم كذلك زينـــا لكل أمةٍ عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون "(الأنعام/108) ، ويشبه هذا أن يقيم في بلاد الكفر ليكون عينا للمسلمين ؛ ليعرف ما يدبروه للمسلمين من المكايد فيحذرهم المسلمون ، كما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم ، حذيفة بن اليمان إلى المشركين في غزوة الخندق ليعرف خبرهم

القسم الثالث : أن يقيم لحاجة الدولة المسلمة وتنظيم علاقاتهم مع دولة الكفر كموظفي السفارات فحكمها حكم ما أقام من أجله ، فالملحق الثقافي مثلاً يقيم ليرعى شؤون الطلبة ويراقبهم ويحملهم على التزام دين الإسلام وأخلاقه وآدابه، فيحصل بإقامته مصلحة كبيرة ويندريء به شر كبير .

القسم الرابع : أن يقيم لحاجة خاصة مباحة كالتجارة والعلاج فتباح الأقامة بقدر الحاجة ، وقد نص أهل العلم رحمهم الله على جواز دخول بلاد الكفار للتجارة وأثروا ذلك عن بعض الصحابة رضي الله عنهم .

القسم الخامس : أن يقيم للدارسة وهي من جنس ما قبلها إقامة لحاجة لكنها أخطر منها وأشد فتكـــًا بدين المقيم وأخلاقه ، فإن الطالب يشعر بدنو مرتبته وعلو مرتبة معلميه ، فيحصل من ذلك تعظيمهم والاقتناع بآرائهم وأفكارهم وسلوكهم فيقلدهم إلا من شاء الله عصمته وهم قليل ، ثم إن الطالب يشعر بحاجته إلى معلمه فيؤدي ذلك إلى التودد إليه ومداهنته فيما هو عليه من الانحراف والضلال ، والطالب في مقر تعلمه له زملاء يتخذ منهم أصدقاء يحبهم ويتولاهم ويكتسب منهم ، ومن أجل خطر هذا القسم وجب التحفظ فيه أكثر مما قبله فيشترط فيه بالإضافة إلى الشرطين الأساسيين شروط :

الشرط الأول : أن يكون الطالب على مستوى كبير من النضوج العقلي الذي يميز به بين النافع والضار وينظر به إلى المستقبل البعيد ، فأما بعث الأحداث " صغار السن " وذوي العقول الصغيرة فهو خطر عظيم على دينهم ، وخلقهم ، وسلوكهم ، ثم هو خطر على أمتهم التي سيرجعون إليها وينفثون فيها من السموم التي نهلوها من أولئك الكفار كما شهد ويشهد به الواقع ، فإن كثيرًا من أولئك المبعوثين رجعوا بغير ما ذهبوا به ، رجعوا منحرفين في ديانتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وحصل عليهم وعلى مجتمعهم من الضرر في هذه الأمور ما هو معلوم مشاهد ، وما مثل بعث هؤلاء إلا كمثل تقديم النعاج للكلاب الضاربة .

الشرط الثاني : أن يكون عند الطالب من علم الشريعة ما يتمكن به من التمييز بين الحق والباطل ، ومقارعة الباطل بالحق لئلا ينخدع بما هم عليه من الباطل فيظنه حقـاً أو يلتبس عليه أو يعجز عن دفعه فيبقى حيران أو يتبع الباطل. وفي الدعاء المأثور: "اللهم أرني الحق حقـاً وارزقني اتباعه ، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه، ولا تجعله ملتبسـاً عليَّ فأضلّ" .

الشرط الثالث : أن يكون عند الطالب دين يحميه ويتحصن به من الكفر والفسوق ، فضعيف الدين لا يسلم مع الإقامة هناك إلا أن يشاء الله وذلك لقوة المهاجم وضعف المقاوم، فأسباب الكفر والفسوق هناك قوية وكثيرة متنوعة فإذا صادفت محلاً ضعيف المقاومة عملت عملها.

الشرط الرابع : أن تدعو الحاجة إلى العلم الذي أقام من أجله بأن يكون في تعلمه مصلحة للمسلمين ولا يوجد له نظير في المدارس في بلادهم ، فإن كان من فضول العلم الذي لا مصلحة فيه للمسلمين أو كان في البلاد الإسلامية من المدارس نظيره لم يجز أن يقيم في بلاد الكفر من أجله لما في الإقامة من الخطر على الدين والأخلاق، وإضاعة الأموال الكثيرة بدون فائدة .

القسم السادس : أن يقيم للسكن وهذا أخطر مما قبله وأعظم لما يترتب عليه من المفاسد بالاختلاط التام بأهل الكفر وشعوره بأنه مواطن ملتزم بما تقتضيه الوطنية من مودة، وموالاة ، وتكثير لسواد الكفار ، ويتربى أهله بين أهل الكفر

فيأخذون من أخلاقهم وعاداتهم ، وربما قلدوهم في العقيدة والتعبد ، ولذلك جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: [من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله] .

وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند لكن له وجهة من النظر فإن المساكنة تدعو إلى المشاكلة ، وعن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين قالوا يا رسول الله ولم ؟ قال لا تراءى نارهما] (رواه أبو داود والترمذي) وأكثر الرواة رووه مرسلاً عن قيس بن أبي حازم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الترمذي سمعت محمدًا ـ يعني البخاري ـ يقول الصحيح حديث قيس عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً .

وكيف تطيب نفس مؤمن أن يسكن في بلاد كفار تعلن فيها شعائر الكفر ويكون الحكم فيها لغير الله ورسوله وهو يشاهد ذلك بعينه ويسمعه بأذنيه ويرضى به ، بل ينتسب إلى تلك البلاد ويسكن فيها بأهله وأولاده، ويطمئن إليها كما يطمئن إلى بلاد المسلمين، مع ما في ذلك من الخطر العظيم عليه وعلى أهله وأولاده في دينهم وأخلاقهم . هذا ما توصلنا إليه في حكم الإقامة في بلاد الكفر نسأل الله أن يكون موافقـاً للحق والصواب .

مجموعة فتاوى ابن عثيمين - فتوى رقم **388**

رد على اعتـراض

لا شك أن بعض القراء ممن لهم فهم معاصر لدين الإسلام، أو ممن يقلدون طائفة من دعاة "الاجتهاد والتجديد"، في الفقه، سيعترضون على كلامي المتعلق بإقامة المسلم في بلاد النصارى، والعمل عندهم أجيرا، والمتعلق أيضا بسفر المرأة وحدها إلى بلاد الغرب، لتعمل هي الأخرى أيضا.

إن هؤلاء المعترضين ينطلقون من أفكار وتصورات جديدة بدأت تغزو عقول بعض الشباب وضعاف المسلمين، منذ بضعة عقود. وعلى رأسها؛ فكرة أن العالم اليوم أصبح كوكبا واحدا، وأن النظام العالمي والعولمي هو السائد والحاكم. ومن هنا فإن قول الفقهاء: إن الأرض تنقسم إلى بلاد الإسلام وبلاد الكفر؛ فكرة متجاوزة لا يقبلها منطق العصر. وبناء عليه فإن وجود المسلم في بلاد الغرب ليس معناه أنه مقيم في بلاد الكفر، بدليل أنه يصلي ويصوم... لكن لماذا يعتدى عليه وعلى هويته، ومسجده وامرأته إذا لبست الحجاب...؟ ولماذا تمارس ضده جميع أنواع السلوك العنصري والإرهابي..؟ أليس لكونه مسلما. وإذا لم تكن هذه السلوكات تصدر عن الكفر النصراني، فما هو مصدرها ؟ قال تعالى: "ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا" (البقرة 217). ألم يأتك خبر المتنصرين والمرتدين من المهاجرين وأبنائهم في بلاد الغرب ؟ بل إن علاقة كثير منهم بالدين أصبحت أوهى من

خيط العنكبوت. بل تجد منهم من تنصر أو ارتد وهو لا يدري.

والأدهى والأمر، أن تجد علماء وفقهاء من أمثال د. يوسف القرضاوي، ينشرون بين المسلمين ما اصطلحوا على تسميته ب "فقه الأقليات"؛ الذي يشرع لإقامة المسلم في بلاد النصارى، كما يعترض على تقسيم بلاد الأرض إلى بلاد الإسلام وبلاد الكفر. بل يعتبر وجود المسلمين في الغرب وجودا ضروريا واستراتيجيا، رغم ما يعانيه المسلمون هناك من كل أنواع الأذى حتى القتل، وما يتعرض له أبناؤهم من تنصير ظاهر وخفي. كما يضعف أصحاب "فقه الأقليات" كثير من الأحاديث النبوية التي لا تتناغم مع أطروحاتهم ومنطلقاتهم، مثل حديث: "أنا بريئ من كل مسلم يقيم بين ظهراني المشركين"، وحديث: "لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فليس منا"... وهذه هي داهية الدواهي وثالثة الأثافي.

كما يسلكون في "فقه الأقليات" هذا مسلك التيسير في كثير من الأمور، حيث يجوزون للمسلمين المقيمين في بلاد الغرب، ما لا يجوز لغيرهم في بلاد المسلمين؛ لأن حالهم حال المضطر !!. وكيف يكون مضطرا من لم يقنع برزقه في بلد الإسلام، وراح يطلب رزقا أفضل منه بالعمل أجيرا لدى النصارى؟

أين هو الاضطرار؟ وأين الضرورة التي جعلته يغادر أهله ووطنه ؟

أليس هذا جهل بالدين وضعف في التوكل ؟

ثم نأتي بعد ذلك فنبارك له جهله وضياع أبنائه، وكثيرا من سلوكاته الطائشة، من خلال "فقه الأقليات". أو نقول له: "الزم مكانك واصبر فمستقبل الإسلام في الغرب" ؟ !!

ومن باب "درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة"، كان الواجب على هؤلاء الفقهاء أن ينبهوا العمال المهاجرين المسلمين، ويحذروهم من نتائج إقامتهم على مستوى الدين واللغة والأسرة، وأن الله سائلهم عن أبنائهم، لا سيما أن الوضع المأساوي لهؤلاء الأبناء لا يخفى على أحد. أليست هذه أرواح مسلمة مهددة بالزيغ والانحراف والانسلاخ عن العقيدة.

ولماذا لا يوجه هؤلاء الفقهاء خطابا شديد اللهجة إلى المرأة المسلمة التي غادرت وطنها وحدها، لتقيم في بلاد النصارى، ذليلة حقيرة، كي تجمع فتاتا من حطام الدنيا على حساب عرضها ودينها ؟ أم يجوزون لها ما لا يجوز لغيرها في بلاد المسلمين؟

لمثل هذا يذوب القلب من كمد   إن كان في القلب إسلام وإيمان

الفصل الثالث:

شهادات ووقائع حية

معاناة نساء مهاجرات

الحالة 1

فاطمة من تطوان، كانت طالبة بالمغرب، تتقن اللغة الإسبانية وكانت تعمل مع جمعية إسبانية متخصصة في مجال التعاون والتنمية بطنجة، وفي تطوان اشتغلت بمكتب أحد المحامين، دخلت إلى إسبانيا بتأشيرة سياحة لكنها لم تعد قط إلى المغرب، ودخلت عالم الشغل في البيوت بمدريد، الأمر الذي لم تفكر قط أن تمتهنه وهي في وطنها، تعاملها مشغلتها الإسبانية بكل احترام لكنها تطلب منها أعباء ثقيلة، كما أنه يجب عليها أن تتحمل المزاج المتقلب للابنة المراهقة التي تغير ملابسها عدة مرات في اليوم، وترمي بها إلى فاطمة لتنظفها، مما يضطر هذه الأخيرة للعمل على ساعات متأخرة من الليل. لا تخرج إلا نادرا مخافة أن يوقفها أحد رجال الشرطة؛ لأنها في وضعية غير قانونية، وتتمنى أن تسوي مشغلتها وضعيتها قريبا كما وعدتها.

الحالة 2

حنان، مطلقة، عمرها 25 سنة، تعمل في مجمع صناعي لإنتاج الحليب بإسبانيا. لكن الاستغلال والتحرش الجنسي منعها من الاستمرار في العمل، وهي تعمل الآن كـ"داخلية" في أحد البيوت بمدريد. تعيش في إسبانيا دون رخصة الإقامة أو العمل أو التغطية الصحية والضمان الاجتماعي، لكنها تشعر بالأمان على الأقل يمكنها السكن عند مشغليها، وتتوفر في غرفتها على حمام شخصي وتلفاز في المطبخ. تتقاضى راتبا شهريا قدره 65.000 بسيطة شهريا، لكنها تحس بأن مشغلتها تعاملها بقسوة شيئا ما، لا يمكنها استقبال مكالمات هاتفية في البيت، الأمر الذي أجبرها على شراء هاتف نقال، ولا تستعمله أيضا إلا خارج أوقات عملها، وفي نهاية الأسبوع تستقبل العائلة عددا كبيرا من الزوار والأصدقاء، ويجب عليها خدمة الجميع وحدها، لا تستطيع أن تقول شيئا وإلا وجدت نفسها في الشارع بين أيدي الشرطة، تقول: "أفضل الموت على العودة إلى المغرب، لن يفهموا وضعي، إنهم ثمانية أفراد ينتظرون ما سأبعثه لهم ولن يتقبلوا فشلي".

الحالة 3

جاءت أنيسة إلى إسبانيا رفقة زوجها، لكنه طلقها فيما بعد، وانخرطت في عالم الشغل داخل البيوت كـ "داخلية" لتوفر السكن والطعام، تناديها مشغلتها دائما بـ "المتخلفة" وتمنعها من أداء فريضة الصلاة خلال أوقات العمل وتقول لها: "نحن نصلي كل أحد، فما هي قصتكم؟ كل مرة طالعون نازلون، إنه أمر لا يطاق..." زوج مشغلتها متقاعد وسبق أن عمل بالمغرب، يضايقها بتحرشه ويعلن لها أنه يعشق المغربيات، لأنهن يدللن أزواجهن ويحسن معاملتهم، كان عليها في غياب مشغلتها أن تتحمل قرافة قلبه التي تنزع قلبها من أسفل صدرها. كما أنها لم تشتكيه لكي لا تجد نفسها في الشارع.

الحالة 4

وفاء من الدار البيضاء، بدأت العمل في مالقة كـ "داخلية" عند عائلة ميسورة وكانت تتقاضى أجرا جيدا لأنها تعمل كالآلة، تمضي أكثر من 4 ساعات يوميا في كي الملابس، بعد ذلك حصلت على عمل آخر في أحد المطاعم إلا أن مشغلها فرض عليها نزع "سترة الرأس" لأن ذلك يشكل في نظره رمزاً للتطرف الديني، وقد يتسبب في مشاكل مع الزبناء، نزعت وفاء الخمار من فوق رأسها رغم تهديدات زوجها الذي توعدها بالطلاق حين عودتهما إلى المغرب.

"لم يكن كلامه إلا عويلا، لم اعره أي اهتمام، أنا أتكلم الإسبانية وهو لا، أنا في وضعية قانونية وهو لا، وهددته أنا أيضا إن هو لم يدعني وشأني أتدبر لقمة العيش، أشكوه إلى السلطات الإسبانية لكي ترجعه إلى المغرب (حسب رأيها).

الحالة 5

في مسجد السوريين بمدريد حكت لي حبيبة بمرارة عن تجربتها ، كانت تسكن في الرباط مع ابنيها وأبيهما الذي كان يشتغل بإحدى مصالح وزارة التخطيط والتوقعات الاقتصادية، كان دائما يدفعها للهجرة إلى إسبانيا كي تعمل وتقتسم معه أعباء الحياة، معللا أنه بالنقود التي سيحصلان عليها معا يمكنهما أن يضمنا مستقبل الأولاد، استسلمت لإلحاحه ورافقت أخت زوجها التي تعمل بإسبانيا منذ سنوات طويلة، تتألم لأنها تركت ابنيها (ع. 11 سنة و م.6 سنوات) كلما هاتفتها إلا وكرر ابنها على مسامعها :

أميمتي لحبيبة لجبال فرقاتك علي

رجعي أميمتي ، نشم ريحتك وحني علي

أجهشت بالبكاء واختنق صوتها، أدمعت كل النساء اللواتي تحلقن حولنا في الطابق العلوي للمسجد، جاءت إلى إسبانيا وهي تحمل أحلاما، وترسم تحقيق طموحات، شغل، نقود كثيرة، عالم جديد، متقدم، ومتحضر، مستقبل زاهر للأبناء، لكي يصبحوا مهندسين، وأطباء، شراء بيت جميل وسيارة فاخرة ... لكن "عالم مدريد" ابتلعها وبؤس الحياة أنهكها، تشتغل كالآلة، كانت تظن أن المهاجرين الذين يعودون محملين بالهدايا من أحذية وقمصان، وقنينات العطر الرخيصة يمتلكون أوروبا بأكملها،

فاكتشفت أنهم نخاسوها الجدد وأن ما يحملونه إنما هو فتات مر المذاق، لا تغادر بيت مشغليها على نمط كثير من المهاجرات اللواتي يخضعن للمشغلة، مقابل المأوى أو يتكدسن في جحور بئيسة على مشارف الأحياء، الغنية، بدون ماء أو كهرباء، أو أدنى مستوى لعيش الآدميين...

كانت بالفعل أول صدمة واجهت المهاجرات المغربيات: والحقيقة التي توصلن إليها هي أن إسبانيا ليست الجنة الموعودة التي حلمن بها، بالإضافة إلى جحيم الغربة والحرمان من فلذات الأكباد، وعطف الآباء ورعاية الأسرة، وجدن أنفسهن في عالم بارد جاف غيومه متلبدة وخيوط شمسه باهتة، وصقيعه جامد، وكل شيء فيه يوحي بالبرودة واللامبالاة، وخوفا من أن يواجه الأهل والأصدقاء هذه التجربة بالنقد، يضطر المهاجر دائما أن يخفي الحقيقة وأن يظهر للآخرين الوجه المغاير للواقع، لأنه يعرف أن مجتمعه وأهله ومحيطه لن "يغفروا فشله" وأنهم يصبون تصورهم في قالب الرخاء الذي نسجوه في خيالهم حينما يروا مهاجرا آخر عاد على متن سيارة براقة، محمل سقفها بهدايا كثيرة ومتنوعة للعائلة، ويخرج من جيبه أوراقا نقدية كثيرة لشراء "قنينة ماء".

الحالة 6

سناء 31 سنة، تعمل مع جمعية للمهاجرين المغاربة بإسبانيا، هاجرت من أجل الدراسة لكنها لم تستطع مواصلة ذلك لصعوبة الوضع. عملت كـ "داخلية" في أحد البيوت، وفي نفس الوقت كانت تبحث عن عمل آخر، كانت مشغلتها تحترمها وتتواصل معها لأنها تتقن اللغة الإسبانية ، حين عودتها من زيارتها للمغرب تحمل لها بعض الهدايا، اشترت لها مرة "جلبابا وشربيل" و"قندورة لزوجها، التقت مع محام إسباني تقول عنه: "إنه مسن بعض الشيء لكنه طيب، لقد سافر عدة مرات إلى المغرب،: " تزوجا وبقيت معه في إسبانيا ، تحس بأنها مندمجة كلية ولديها أصدقاء إسبان كثر. 12

[12] – نصوص هذه الحالات منقولة من كتاب: "نساؤنا المهاجرات"... مرجع سابق.

رصـــاص العنصرية

لعل أول ما يعانيه المسلم المهاجر في بلاد الغرب؛ آلام وآثار العنصرية، إذ يلمسها في نظرات الغربيين وقسمات وجوههم منذ اللحظات الأولى التي تطأ فيها أقدامه بلاد المهجر. إن سهامها المسمومة تخترق كيانه وتحدث فيه، مع الزمن، تصدعا خطيرا مما يؤدي إلى الشعور بالمهانة والذلة، وربما بشيء من العدمية. هذه العنصرية البغيضة تطارده وتلاحقه أينما حل وارتحل؛ في الشوارع والأزقة، داخل حافلات النقل، في الأسواق والمتاجر والمقاهي، في الحدائق والأماكن العمومية، في الإدارات... وفي ميدان عمله، ولا يتخلص منها مؤقتا إلا في بيته.

ولا يخفى على ذي عقل أن أصول هذه العنصرية متجذرة في الثقافة الغربية، المسؤولة عن إفراز بعض الفرضيات الاستشراقية والأنتربولوجية، التي تعلي من شأن العرق الآري والإنسان الأوربي الأبيض. كما استطاع الرجل الغربي من خلال الاستعمار والتغريب ثم العولمة، أن يصنع من ذاته الإنسان النموذجي والمركزي؛ سيد الأرض وصاحب الرسالة الحضارية، وأن على الشعوب والأجناس الأخرى أن تخضع لمنطقه وتسعى للتشبه به وتقليده.

ثم إن المسلم المهاجر في بلاد الغرب أكثر اكتواء بلظى العنصرية من غيره من المهاجرين من ذوي الأجناس والثقافات والديانات الأخرى، وذلك راجع إلى عوامل تاريخية ودينية معروفة.

ولا زال موضوع العنصرية يشكل محور كثير من الدراسات واللقاءات والندوات العلمية في بلاد الغرب، وذلك قصد علاج هذه الظاهرة الاجتماعية، أو التخفيف على الأقل من وطأها، لكن دون جدوى.

وتتجلى وحشية العنصرية عندما يقدم بعض ممارسيها على اقتراف جريمة القتل؛ حيث يمسي كثير من المهاجرين المغاربيين هدفا للرصاص العنصري الغادر، أو لطعنات السلاح الأبيض. وقلما يمر أسبوع دون وقوع جريمة قتل في صفوف المهاجرين المسلمين في بلدان أوربا. إلا أن هذه الجرائم تزداد أثناء الأزمات الاقتصادية والسياسية. وهذا ما حصل سنة **1974** بسبب الأزمة الاقتصادية المرتبطة بارتفاع أسعار البترول العربي، أو بعد الثورة الإيرانية (**1979**)؛ حيث نشطت بعض الحركات الإسلامية في أوربا مما أدى إلى ردود فعل لها علاقة بما يسمى: الإسلاموفوبيا. وكذلك ما سمي بتفجيرات القاعدة، وأيضا مضاعفات وانعكاسات أحداث **11** شتمبر **2001**.... وأخيرا مضاعفات واقعة "شارل إيبدو" بفرنسا. بالإضافة إلى الأحزاب السياسية اليمينية في أوربا التي تغذي روح العنصرية والعداء للمهاجرين المسلمين.

وخلال السنوات الثمانية (في عقد الثمانينيات من القرن الميلادي الماضي)، التي قضيتها في باريس من أجل الدراسة، كنت أهتم بالموضوعات المتعلقة بالعنصرية، لا سيما أن هذا الموضوع كان يشكل محورا من محاور أطروحتي حول المهاجرين المغاربة في باريس وضواحيها. وما أكثر الاعتداءات التي تعرض لها هؤلاء في تلك الفترة. وأكثرها تأثيرا في نفسي ذلك الاعتداء الذي ذهب ضحيته طالب مغربي في سن التاسعة عشرة من عمره. وقد حضرت جنازته في جمع غفير من المهاجرين. وورد في مجلة فرنسية[13] "أن هذا الشاب المغربي هو القتيل الثالث عشر في سلسلة القتلى المهاجرين المغاربة خلال سنة **1982**".

وعن سبب موت هذا الطالب المغربي، أخبرني بعض من حضر الجنازة أن مواطنا فرنسيا أطل من نافذة شقته وفتح النار على مجموعة من المراهقين المغاربيين الذين أزعجوه بصياحهم، فأصابت رصاصته الطالب المذكور رحمه الله.

نعم إن كثيرا من الشباب المغاربيين يتعاطون هناك المخدرات ويمارسون بعض الجرائم ولا يحترمون القوانين المدنية... لكن هذا لا يبرر الاعتداء عليهم بهذه الوحشية.

إن سياسة الإدماج المتبعة في فرنسا لا تراعي الخصوصيات الثقافية والدينية لهؤلاء المهاجرين، كما أن المسؤولين يتجاهلون المشاكل الاجتماعية والتربوية

---

[13] – **Le Nouvel Observateur , N° 941, novembre 1982 Paris France.**

المتعلقة بأبناء أولئك التعساء الغرباء، مما يؤدي إلى تفاقم المشاكل والأزمات الاجتماعية والنفسية في صفوف المهاجرين المغاربيين وأبنائهم.

ولا يخفى على الباحثين في موضوع الهجرة أن عدد المغاربيين الذين قتلوا على يد العنصريين خلال العقود الأخيرة، يقدر بالمئات، ورغم ذلك فإن هذه الظاهرة اللاإنسانية لا تقلق بال المسؤولين سواء في أوربا أو في المغرب العربي، لأن الأمر يتعلق بأشخاص لا قيمة لهم على المستوى الاجتماعي والسياسي... إنهم ينتمون إلى الطبقة الكادحة المهمشة؛ طبقة التعساء الأشقياء. لقد هجروا بلدانهم إلى أوربا بحثا عن الغنى، فكان نصيب معظمهم التعاسة والشقاء إلا من رحم الله. ولأن يعيش المسلم آمنا في بلده غير مستهدف ولا مهان ولو كان فقيرا، خير له من أن يحيا في بلاد النصارى مهانا محتقرا ومهددا، لا يعرف الأمن والطمأنينة.

مهاجر مغربي في بلجيكا

في هذا اليوم (فاتح محرم 1430هـ/ 26 دجنبر 2008)، كنت على موعد مع السيد (م.ع)؛ وهو من الأصدقاء الذين تعرفت إليهم في السنوات الأخيرة من سبعينيات القرن العشرين الميلادي، حيث جمعتنا الدراسة الجامعية في مدينة فاس.

سافر إلى بلجيكا لمتابعة الدراسات العليا في الاقتصاد. وبعد بضع سنوات، ولج ميدان العمل، كما يقع لكثير من الطلبة العرب والأفارقة في بلدان أوروبا. إنه الآن يزاول تدريس مادة الإسلام في ثانوية بمدينة شارل لوغوا جنوب بلجيكا.

سألته متعجبا: " كيف يدرس الإسلام للتلاميذ في بلد مسيحي؟".

فقال: "ليس هناك ما يدعو للعجب، وهل تظن أن بلدا علمانيا يعلم أبناءه ديننا، والعداوة الدينية مستحكمة، وقائمة بيننا وبينهم إلى يوم القيامة؟. والحقيقة أنه؛ على إثر زيارة قام بها ملك المملكة العربية السعودية، أو أحد أمرائها لبروكسيل، أيام أزمة البترول الأولى سنة 1973، وبعد إبرام اتفاقية بين الحكومتين، طلب هذا الملك أو الأمير من رئيس حكومة بلجيكا، أن يدرس

الإسلام لأبناء الجالية الإسلامية في بلجيكا. فصدر ظهير ملكي بلجيكي ينص على هذا الشأن".

ثم سألته: "حدثني كيف كان موقف البلجيكيين بعد صدور الظهير؟" فقال: "لقد ثارت ثائرهم، واستنكروا ذلك، وطفقت الصحف ووسائل الإعلام تنتقد وتتهكم".

"وماذا عن مضمون هذه المادة وعدد ساعاها؟"

فأجاب: "يا صديقي إن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد إيهام أو دغدغة لعواطف المهاجرين والمسؤولين العرب. إن هذه المادة تندرج في إطار مادة الأخلاق والأديان. فعلى التلميذ، عندما يصل إلى السنة الخامسة أي ما قبل سنة الباكالوريا، أن يختار ما بين الأخلاق والأديان. فأما الأخلاق فيدرسون فيها بعض النظريات العلمانية؛ كنظرية التطور الداروينية، ونظريات أخلاقية فلسفية. وأما الأديان فيطلب من التلميذ أن يختار ما بين الكاثوليكية والأرثوذوكسية والبروتستانتية والعبرية والإسلام. وقد خصصت وزارة التربية والتعليم لهذه المادة ساعتين أسبوعيا، خلال السنتين الخامسة والسادسة (الباكالوريا) من التعليم الثانوي. ومما يلفت نظري أن معظم أبناء المهاجرين العرب، يفضلون مادة الأخلاق العلمانية، ولا يرغبون في مادة الإسلام. بل من المفارقات العجيبة أن تجد كثيرا من التلاميذ البلجيكيين المسيحيين يقبلون عليها، الأمر الذي

استرعى انتباه المسؤولين في بعض الثانويات البلجيكية. وهذه الظاهرة بدأت تنمو بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 بنيويورك. ثم زاد اطرادها ونموها، على إثر الهجمات الدانمركية على شخصية رسولنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وقبل سنتين، كان في قسم السنة الخامسة ثانوي بالمؤسسة التي أدرس فيها اثنا عشر تلميذا بلجيكيا من أصول مسيحية، وجلهم أبناء أطر؛ أطباء أو مهندسين... أو أرباب الشركات. وإنه لمما يثير الحيرة والاستغراب أن يقبل هؤلاء التلاميذ المسيحيون على ما يزهد فيه ويعرض عنه أبناء جاليتنا المسلمة.

أما عن مضمون مادة الإسلام، فإنه يشتمل على المحاور الأساسية التي تعرف بالدين الإسلامي؛ من توحيد وصلاة وصيام وزكاة وحج. لكن يطلب مني كمدرس ومن باقي المدرسين العرب، أن يكون شرح هذه المحاور بطريقة عقلية وفلسفية. كما هو الشأن عندما يكون أستاذ مادة الفلسفة يلقي عرضا أو درسا يتعلق بعقيدة أو فلسفة ما. وبعبارة أخرى، ينبغي على مدرس هذه المادة؛ وهو عربي مسلم ألا يبرز ذاته وعاطفته الدينية، بحيث قد يؤدي ذلك إلى التأثير في التلاميذ وجعلهم يهتمون بالإسلام. أو يميلون إليه. وفي هذا الصدد، ما زلت أتذكر ذلك اليوم الذي انتقدني ولامني فيه مدير الثانوية، عندما انتهى إلى علمه أنني قرأت مرة سورة الفاتحة على التلاميذ باللغة العربية، قبل ترجمتها وشرحها.

فقد قامت قيامته، وقال لي بلهجة صارمة: لا تستعمل العربية في درسك ولو كلمة واحدة؟

وبالمناسبة تذكرت كلاما نطق به عمدة بروكسيل السابق حيث قال: "مادمت أسمع مغربيا يتكلم العربية أو الدارجة المغربية فإن الخطر ما زال قائما؟؟"

ثم إن المسؤولين في المدارس والثانويات يمنعون التلاميذ ذوي الأصول المغاربية من الكلام بالدارجة المغربية أو العربية داخل القسم. وإن هذا نادر ما يقع، لأن جل هؤلاء التلاميذ يتواصلون فيما بينهم بالفرنسية داخل القسم وخارجه، وفي كل مكان، بما في ذلك بيوتهم؛ حيث يخاطبون إخوتهم وآباءهم وأمهاتهم بالفرنسية أيضا. فبادرته قائلا: "ألا يدل هذا على نوع من الذوبان والانسلاخ من الهوية العربية الإسلامية؟"

فأجابني: "نعم إنه الذوبان بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ذوبان في الحياة البلجيكية لغة وثقافة وسلوكا، وانسلاخ تدريجي من الهوية العربية و الدينية. ذلك الانسلاخ الذي يتجلى في عدم ممارسة الشعائر الإسلامية، والاستهانة بها؛ كالصلاة والصيام. فقلما تعثر على شاب من الجيل الثاني؛ أو فتى من الجيل الثالث يحافظ على صلاته وصيامه. وأظن أن هذه الشعائر والمظاهر الدينية آيلة نحو الاندثار والتلاشي، في أوساط الأسر ذات الأصول المغاربية أو التركية...

قبل قليل أشرت في كلامك إلى أثر "شهود يهو" في صفوف بعض المراهقين والشباب.

هلا حدثتني بشيء من التفصيل عن هذا الأمر؟

نعم، إن المسلمين المهاجرين في أوروبا، من بين المستهدفين الأساسيين من قبل المنصرين وأصحاب عقيدة "شهود يهو"، حيث يطرقون أبوابهم في أيام الآحاد، ويحدثونهم في موضوع الإيمان بالله محاولين إقناعهم بما يعتقدونه من تصورات عقدية باطلة. ورغم أن الجهود التي يبذلونها في سبيل هذه الدعوة غالبا ما تذهب سدى، فإن ذلك لم يثنهم عن عزمهم، إذ أنهم يقنعون فقط ببث الشكوك في عقيدة هؤلاء المهاجرين. أما الظفر بتنصير أحدهم، أو جلبة إلى حظيرة "شهود يهو" فتلك أمنية غالية!!

بيد أن صبرهم، وحزمهم، ومثابرتهم، وأخذهم للأمر عدته، جعلهم ينالون ويحققون بعض ما كانوا يحلمون به. فقلت له: وماذا حققوا؟

فقال، وهو يتنفس بملء رئتيه من شدة الأسف والتأثر:

"لقد زارني في السنوات الأخيرة بعض أتباع "شهود يهو". وكان بينهم أشخاص من أصول مغاربية، إنهم شباب تحولوا من دين الإسلام إلى هذه العقيدة الفاسدة !! وعددهم في ازدياد. ولقد سر بهم أساتذتهم الدجالون سرورا كبيرا لكونهم يمثلون أحسن رسل للعقيدة الجديدة لدى إخوانهم وأسرهم؟!"

هذا يا صديقي عبد الله، ما حضرني من ألوان المآسي والكوارث التي لحق بالمهاجرين المسلمين، وأبنائهم وأحفادهم في هذا البلد الأوربي. ولقد صدق الفقيه الداعية أبو بكر الجزائري عندما سأله بعض المهاجرين عن حكم الإسلام في الإقامة ببلاد النصارى، فأجاب بأنها إقامة محرمة لاسيما إذا كان المهاجر المسلم لا يأمن على نفسه وأولاده الفتنة في الدين. ومن يأمنها منا في بلد الغربة بين ظهراني النصارى المشركين؟!

الموريسكيون الجدد

في يوم الأربعاء 23 نوفمبر من سنة 2011 م، انطلقت، في رحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، أشغال ندوة علمية تتعلق بموضوع الموريسكيين. شارك فيها أساتذة جامعيون من مدينة تطوان وخارجها. وبعد استماع الحاضرين إلى كلمات ومداخلات السادة الأساتذة المشاركين، فتح باب الأسئلة والمناقشات، وكنت ضمن الذين أدلوا بدلوهم في هذه الندوة، و أخذت الكلمة قائلا:

"أشكر السادة الأساتذة الباحثين على ما أتحفونا به من مداخلات وجولات علمية وأدبية ،في عالم وتاريخ الموركيين، وأقدم التساؤل التالي:

إذا كان اهتمام كثير من الباحثين في بلداننا العربية الإسلامية بموضوع الموريسكيين، يزداد يوما بعد يوم، نظرا لأهميته ولأبعاده الدينية والثقافية، ونظرا لما لحق الموريسكيين من ظلم واضطهاد على مدى قرنيين من الزمن...لماذا لا يحظى موضوع: "الموريسكيون الجدد" !، كما أسميهم، بالعناية نفسها. علما بأن الموريسكيين الجدد أحياء، وهم بذلك أولى بالاهتمام. إن هؤلاء الموريسكيين هم أبناء وأحفاد المهاجرين المسلمين المعاصرين في بلاد الغرب. ولقد أثبتت دراسات وأبحاث حول الموضوع أن أكثر من سبعة ملايين من أبناء وأحفاد

المهاجرين المسلمين، الذين ولدوا ونشؤوا في المجتمعات الغربية، قد ذابوا وانصهر ثلاثة أرباعهم أو أكثر في أحشاء تلك المجتمعات. ذلك أن أغلبهم لا يتكلمون العربية، ولا صلة لهم بأعراف وتقاليد آبائهم الاجتماعية، وأغلبهم لا علم لهم بالواجبات الدينية، كما أن نسبة قليلة منهم من يحافظ على الصلاة والصوم.

أما الذين تزوجوا منهم بالأوربيات، أو اللواتي تزوجن بالأوربيين، فإن أولادهم وأحفادهم قد قطعوا الصلة نهائيا بالدين الإسلامي، فهم إن لم يكونوا قد تنصروا بحكم الوراثة، فقد تعلمنوا. ومما زاد في الطين بلة، أن الأحداث والوقائع التي عرفتها المجتمعات الإسلامية في العقود الأخيرة؛ بدءا من الثورة الإيرانية ومرورا بما سمي ب"تنظيم القاعدة". ثم أحداث **11** شتمبر **2001** بنيويورك، إلخ. كل ذلك كان له آثار سلبية في نفوس المهاجرين وأبنائهم، حيث غدوا أكثر فأكثر هدفا للكراهية والعنصرية، مما دفع بكثير من شباب المهاجرين المسلمين إلى التنكر، وتجنب كل العلامات والمظاهر التي توحي بأن أصولهم عربية أو إسلامية، حيث أن طائفة منهم مثلا، اختاروا أسماء النصارى بدل أسماء العرب المسلمين، أملا في طمس هويتهم، إلى غير ذلك من الكوارث والمآسي.

ومن هنا فإني أدعو السادة الأساتذة المحاضرين في هذه الندوة إلى الاهتمام بالمورسكيين الجدد، والعمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه. ثم إن الإحسان إلى

الموريسكيين الأحياء والعناية بهم، أولى من الاهتمام بالموريسكيين الموتى، والبكاء على أطلالهم ورفاقهم.

ومما لا ريب فيه أن هناك نوعا من التقارب والتماثل بين السياسة الغربية المتبعة إزاء المسلمين المهاجرين في دول الغرب، والسياسة التي اتبعتها السلطات المسيحية والكنسية، مع الموريسكيين الذين ظلوا مقيمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة. فإذا كانت المساجد قد هدمت آنذاك، أو تحولت إلى كنائس وإسطبلات، فإن السلطات الغربية المعاصرة قلما تستجيب لرغبة المسلمين المهاجرين في بناء المساجد داخل أحيائهم. كما تلوذ بالصمت إذا اعتدي على مساجدهم أو الأماكن التي يصلون، والتي عادة ما توجد في الطوابق الأرضية، كما لا تسمح لهم برفع الصوت بالأذان، إلى غير ذلك من المضايقات. ثم إن وسائل الإعلام لا تتوقف عن حملتها الشعواء ضد المساجد وكل ما يتعلق بالمظاهر الإسلامية في الغرب.

والمثال الثاني الدال على شيء من التقارب بين السياستين القديمة والحديثة تجاه المسلمين في الغرب، آخذه من مجال التربية والتعليم. لقد أكدت النصوص التاريخية المتعلقة بالوجود الإسلامي في الأندلس بعد نكسة السقوط والانهيار، أن السلطات الكاثوليكية كانت تمنع الآباء الموريسكيين من تعليم أبنائهم اللغة العربية، وتأمرهم بإرسالهم إلى المكان المخصص لهم لكي يتعلموا اللغة القشتالية،

وإلا خضعوا للعقوبات اللازمة. وكان الهدف من وراء ذلك هو قطع الصلة بين هؤلاء الأبناء وبين أصولهم الدينية والثقافية، ثم تنصيرهم.

"أما في الغرب المعاصر فإن الأب المسلم والأم المسلمة إذا رزقا الصلاح في دينهما، قادران على تربية أولادهما تربية صالحة في أوربا إلى سن السادسة. وبعد هذه السن تلزم الدولة الأبوين بإحضار أولادهما إلى المدرسة، إذ أن التعليم إجباري لمدة عشر سنوات، وفي المدرسة يخضع الطفل لتربية لا تمت للدين بصلة، ولا للأخلاق الحميدة بقربى، فمن سن السابع تبدأ دروس الجنس في المدرسة، فيتعلم الأطفال معاني الجنس، وكيفية ممارسته، دون تحذير من العلاقة الجنسية المحرمة، بل على العكس من ذلك فيها حض كبير على العلاقات الجنسية المطلقة.

كما أن الطفل لا ينجو من أفكار الإلحاد التي تطرح على رأسه الصغير، من مدرسه أو مدرسته، دون أن يغفل المدرس عن بيان حقوق الطفل، ومنها حق الاعتراض على أمه وأبيه، وأن ليس لأحد أن يضربه أو يؤدبه، وحرية اختياره لدينه وعشيقته وطريقة حياته دون ممانعة من أب أو أم، وإن فعلا فيسحب حق تربيتهما لطفلهما. فلا يتجاوز الطفل سن البلوغ إلا هو عاص لربه، عاق لوالديه، مجانب للقيم والأخلاق إلا من رحم ربي.

وإن من يدعي أنه يستطيع أن يربي أولاده في أوربا التربية الإسلامية الصحيحة، فنقول له: بيننا وبينك واقع الحال. فالواقع يدلنا أن المنحرفين من أبناء المسلمين أضعاف أضعاف الملتزمين منهم، وهذا ليس في الآباء الذين درج آباؤهم على الرذيلة وتعودوا عليها، وإنما هذا في الأبناء الذين نشأ آباؤهم على الالتزام وثبتوا عليه"[14].

إن سياسة الغرب تجاه المهاجرين المسلمين، تراهن على المستقبل، كما أنها تخفي التنصير وتعلن العلمانية والحرية والديمقراطية. تلك السموم التي قلما يشعر بها الآباء المسلمون المهاجرون، بيد أنهم قد يدركونها، لكن بعد فوات الأوان.

نعم إنه لمخطط رهيب ولمؤامرة مدبرة بإحكام. بالأمس أو قبل عقود، شرعت أوربا في استغلال سواعد المهاجرين المسلمين في بناء دولتها، والآن تقطف ثمارا أخرى؛ إنهم الأبناء والأحفاد الذين بدؤوا ينصهرون ويذوبون في بوتقة المجتمعات النصرانية الغربية التي تعاني جمودا أو نقصا ديموغرافيا كبيرا !!.

وصدق أحد العلماء القدامى عندما سئل:

---

[14] – سالم بن عبد الغني الرافعي؛ أحكام الأحوال الشخصية للمسلمين في الغرب، ط 1 الرياض دار الوطن للنشر 1422هج، 2001م ص 80.

"من أتعس الناس؟" فأجاب: "أتعس الناس من باع دينه بدنياه". ثم قيل له: "ومن أتعس منه؟". فقال: "من باع دينه بدنيا غيره".

لما بدأت وفود العمال المهاجرين المسلمين تفد إلى أوربا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، لإعادة بناء ما هدمته الحرب، والقيام بأعمال أخرى، غلب على ظن المسؤولين الغربيين أن هؤلاء المهاجرين سيعودون إلى بلدانهم بعد توفير قسط من المال. لكنهم آثروا البقاء والإقامة الدائمة، بعد أن تزوجوا وأنجبوا الأولاد؛ ذلك الصيد الذي لم تكن أوربا العجوز تحلم به ولا خطر ببالها !!. لكن هذه الإقامة الدائمة أقلقت، مع مرور الزمن، بال المسؤولين لما أحدثته من صراعات ومشاكل اجتماعية، بسبب الاختلاف الديني والثقافي، مما دعا هؤلاء المسؤولين لإقامة ما سمي بسياسة الاندماج.

وفي هذا الصدد يقول الكاتب التجاني بولعواني:

" بالنظر إلى الخطاب السياسي المهيمن في الغرب، يدرك أن البقاء المسلمين سواء في البلدان الأوربية أم في الدول الغربية، غير مرهون فحسب بتوفرهم على وضعية قانونية صحيحة، أو نيلهم لجنسية البلد الذي يوجدون فيه، أو حتى انتمائهم إليه بالولادة والتربية والتمدرس ونحو ذلك، ولكن مرهون بما هو أهم من ذلك كله، وهو وجوب انخراطهم في الحياة الغربية العامة؛ ثقافيا ولغويا واجتماعيا واقتصاديا وأخلاقيا وغير ذلك، على أن يكون هذا الانخراط مسايرا

بل ومندرجا في بوتقة المجتمع الغربي، قلبا وقالبا، تفكيرا وسلوكا، وبعيدا عن أي تصارع مع أخلاق وتقاليد الغربيين، ولو أنها تهدد المسلمين المغتربين في هويتهم الدينية والثقافية، وفي تربية أبنائهم وتوجيههم، مما يضعهم أمام نارين؛ نار الولاء للآخر، ونار التمسك بالهوية الأصيلة.

وسعيا إلى تنفيد هذا المبتغى الذي يطلق عليه في الأدبيات الغربية سياسة الاندماج، تم حشد شتى الإمكانات القانونية والمادية والدعائية، التي وظفتها العديد من الدول الغربية في شكل مشاريع عدة، تأتلف حول أهداف موحدة. وتكلفت مختلف الأجهزة بتطبيق ذلك وتعميمه على كل الأجانب الموجودين بين ظهرانيها، من وزارات وأحزاب ومؤسسات تعليمية وجمعيات وشركات وغير ذلك، وعندما تمعن النظر في هذا الاهتمام اللافت بهذه القضية، تشعر وكأنك لست أمام سياسة الاندماج، وإنما أمام ثورة الاندماج، ما دام أن أولئك المشرفين على ملفات هذه القضية، تفهم من خطابهم وكأن لا خيار للأجانب والمسلمين إلا الاندماج في المجتمعات الغربية وأن رضى الغرب عنهم لا يأتي إلا من بوابة اندماجهم وفق رؤيته الفكرية والتنظيرية وإلا فإنهم سوف يحشرون لا محالة في خانة الخوارج الجدد !.[15]

---

[15] - التيجاني بولعواني؛ "المسلمون في الغرب بين تناقضات الواقع وتحديات المستقبل"، أفريقيا الشرق؛ الدار البيضاء المغرب **2010**، ص**74**.

المهاجرون المسلمون في أوربا وحلم تغيير الهوية

إن المعاناة التي يعانيها المسلمون المهاجرون، لا سيما الشباب، في دول الغرب أكثر من أن تحصى، كما أن وطأتها شديدة في نفوسهم. والسبب في ذلك يرجع أساسا إلى صعوبة اندماجهم الاجتماعي والثقافي في نسيج المجتمع الغربي، تلك الصعوبة الناتجة عن التعارض والاختلاف الديني والثقافي والقيمي. خصوصا إذا علمنا أن سياسة إدماج المهاجرين المسلمين التي يمارسها المسؤولون الغربيون، تهدف إلى طمس هويتهم، وصهرها في هوية الغرب.

يقول كاد ميراد بطل فيلم «الإيطالي» الذي عرض في الصالات الفرنسية؛ إنه حين بدأ العمل التلفزيوني لأول مرة في عام **1990** في فرنسا، لم يكن يفكر لحظة في تغيير اسمه الأصلي من قدور مراد إلى كاد ميراد، الفتى المسلم ذي الجذور الجزائرية. وأثناء وجوده في القناة الأولى الفرنسية، في بدايات عمله السينمائي سمع بعض كلمات الاشمئزاز والسخرية من عدد من العاملين والمخرجين في القناة حول اسمه وأصوله، رغم أنه ولد في فرنسا ووالدته تعيش فيها منذ عام **1950**، أي منذ ما قبل استقلال الجزائر عن فرنسا في عام **1962**، مثل الكثير من الجزائريين. وهكذا قرر قدور أن يغير اسمه، أو يحرفه،

لكي لا يظل دائما يلعب أدوار الفتى العربي في الأفلام التي يدخل فيها. كان يكره ذلك ولا يزال. هذا الفيلم الذي لعبه مؤخرا استثناء، ربما لأنه قرر أخيرا إبراز بعض معاناته الشخصية مع العنصرية.

يروي الفيلم قصة شاب عربي يعمل في معرض للسيارات الإيطالية في مدينة نيس الجنوبية. إنه الفتى الذي يعيش وحيدا في نيس، يخفي اسمه وأصوله العربية ويدعي أن أصوله إيطالية واسمه دينو.ولكي تكتمل حبكته فإنه يلبس الصليب في رقبته ويتحدث الفرنسية بلكنة إيطالية، كما أنه يتحدث بضع كلمات إيطالية لكي يبعد أي شك يحوم حوله. وفي إجازته الأسبوعية يزور أهله بالقرب من مدينة مرسيليا التي تعج بمواطنين من أصول مغاربية وجزائرية . لكن مفارقة تحدث في القصة. يمرض والد دينو قبل أن يهل شهر رمضان بأيام. يدخل المستشفى، ويطلب من ابنه الكبير مراد أن يصوم عنه شهر رمضان، لأنه غير قادر على صيام الشهر، ولا يمكنه أن لا يصوم لأن هذا فرض واجب فرضه الإسلام على كل المسلمين، ولذلك فهو يطلب منه أن يصوم عنه الشهر. دينو لا يعرف شيئا عن رمضان، لم يصُمه في حياته، بل يكاد لا يعرف عن الإسلام شيئا، كغيره من معظم أبناء المهاجرين في فرنسا. وتبدأ المفارقات في عمله وحياته ومع صديقته الفرنسية، التي لم يحلُ لها دعوته إلى منزل أهلها ليتعرفوا

عليه إلا في رمضان. وفي النهاية، انكشفت قصته وقصة إخفائه لأصوله، فيترك العمل وتتركه صديقته، ويخسر كل شيء.

يذهب إلى بيت العائلة لكنه لا يدخله، بل يذهب إلى مقهى، وبعد ذلك يجد نفسه في مقر للبوليس الفرنسي. الشرطة تعتقد أنه جاء من الجزائر حديثا كغيره من الذين يأتون خلسة. يعيدونه إلى الجزائر، وهناك أيضا يتعرض للسجن ولا يعرف أحد هويته إلا حين يحضر والده لأخذه لتتغير حياته بعدها. كل هذا السيناريو يحصل في قالب درامي جميل وخفيف، يظهر من ضمن ما يظهر معاناة المهاجرين مع أسمائهم في فرنسا، ليس بسبب الإرهاب وليس بسبب مرحلة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر (أيلول)، بل بسبب العنصرية المتغلغلة داخل المجتمع الفرنسي. قد تكون هذه القصة عادية في بلد آخر، شخص مدّعٍ ينتحل شخصية أخرى غير شخصيته الحقيقية للهرب من مرارة العنصرية القميئة والنظرة الدونية. لكن في فرنسا، هي قصة الكثير من الناس، الذين بسبب ما يواجهونه في حياتهم اليومية، يغيرون أصولهم وأسماءهم، من أجل تحقيق الذوبان الكامل في المجتمع الذي لا ينظر إليهم سوى على أنهم غرباء. وفيلم قصة كاد ميراد، هو فيلم عن هذه المعاناة التي قد يصل عدد أبطالها إلى بضعة ملايين من الشباب المسلمين المقيمين في فرنسا، وغيرها من دول أوربا والغرب.

ترى هل يستطيع هؤلاء الغرباء المهاجرون مواجهة الإدماج القسري اللاإنساني، الذي يستهدف هويتهم وكينونتهم، أم سيكون مصير كثير منهم، مصير الموريسكيين الأندلسيين في إسبانيا قبل بضعة قرون ؟

مأساة مغربيات في إيطاليا

علمت هبة بريس (صحيفة إلكترونية)، من مصادر مطلعة، أن مآسي مغاربة إيطاليا كثيرة ومتعددة وأرقامها في تصاعد مع تزايد أعداد أبناء الجالية المقيمة بإيطاليا، ومع استمرار تجاهل وإهمال السلطات الإيطالية والمغربية لأسبابها. بحيث كشف مركز استماع يهتم بمشاكل النساء والأسر المغربية بايطاليا، عن أرقام وتفاصيل مخيفة تتعلق بتزايد أعداد الأطفال المغاربة الذين تنتزعهم السلطات الإيطالية من أسرهم المغربية، لتتبناهم أو تتكفل بهم أسر إيطالية محرومة من الأبناء وتحولهم إلى إيطاليين، وربما إلى مسيحيين يجهلون أصولهم .

فرغم أن هذه المأساة لا تنحصر فقط بجهة البييمونتي لتنتشر وبأرقام كبيرة بجهات لومبارديا وإيميليا رومانيا، الفينيتو التي تعرف تواجدا أكبر للجالية المغربية، فإن السلطات القنصلية والدبلوماسية المغربية بإيطاليا، ومعها هيئات حقوقية تهتم بالهجرة، تبقى في موقف المتفرج، وكأن الموضوع لا يعنيها متجاهلة آهات وصرخات ودموع أمهات مغربيات مقهورات.

نكتشف اليوم وللأسف أن عددا من النساء المغربيات يحرمن من أطفالهن وبشكل قاسي، ليتم تسليمهم إلى أسر إيطالية عقيمة للتكفل بهم وتربيتهم. هذه الحقيقة اكتشفناها كذالك أثناء قيامنا بأبحاث ميدانية ببعض المدن الايطالية،

تخص النساء المغربيات اللواتي يعشن أوضاعا صعبة ويعانين من مشاكل أسرية، ليصبحن مضطرات إلى العيش صحبة أبنائهن في خيريات ومؤسسات اجتماعية بعيدا عن الزوج، مما جعل عددا منهن بسبب جهلهن بالقانون الذي لا تقوم السلطات الإيطالية المكلفة بالشؤون الاجتماعية بتفسيره، يوقعن على وثائق تمكن المؤسسات الاجتماعية الإيطالية من الاحتفاظ بالأبناء وتسليمهم إلى أسر إيطالية، بدعوى أن الأم أو الأسرة المغربية غير قادرة على الاعتناء بهم، إحداهن انتزعت منها رضيعة من حضن أمها لتسلم إلى أسرة إيطالية للتكفل بها ليتم منعها بعد ذلك حتى من رؤيتها، وأعتقد أن هناك حالات لأن هناك نسبة كبيرة من نساء مغربيات ممن يجهلن اللغة الإيطالية، ولا يعلمن بوجود مركز الاستماع هذا ولا كيف يتحركن ليقتصرن فقط على التوجه إلى احدى قنصليات المملكة. غير القادرة هي الأخرى على فعل أي شيء لهن، كما ان سلطات المغربية لم تتحرك حتى الآن في مثل هاته الحالات.

كما نذكر مأساة أمهات مغربيات؛ (دليلة) نموذج مؤثر لما تعيشه الأمهات المغربيات العازبات من جحيم بايطاليا رمتها الأقدار في أحضان أوربا لتجد نفسها، فجأة، بين مطرقة العودة إلى المغرب وسندان البقاء، خاصة أنها لا تتوفر على وثائق الإقامة التي تضمن لها الاستفادة من الامتيازات والحقوق التي يستفيد

منها المواطن الإيطالي. كما تقول إنها تقطن في غرفة متواضعة تقتسمها مع إحدى الأسر في انتظار الإستفادة من سكن ملائم.

واستطردت دليلة، البالغة من العمر **34** سنة، قائلة، إن قصتها بدأت عندما وطأت قدماها إيطاليا بعد حلم كانت تظن أنها حققت جزءا منه، على الأقل، بعدما حصلت على عقدة عمل محددة في **6** أشهر، أدت ثمنا لها مبلغَ **65**ألف درهم، إلا أنها، وبعد أن أوشكت العقدة على الانتهاء، تعرفت على مغربي وربطت معه علاقة وصفتها بالمصلحية، لكن علاقتها تطورت لتنتهي بحمل غير مرغوب فيه من طرف واحد.

وفي موضوع ذي صلة، ضبطت السلطات الأمنية أخيرا ، مجموعة من الأمهات العازبات يسرقن بعض المنتوجات داخل سوق ممتاز، ويضعن تلك المسروقات في العربات المجرورة الخاصة بالأطفال وعند خروجهن من المركّب التجاري، طاردهن رجال الأمن وكانت ضمنهن سيدة لديها ابنة صغيرة، لاذت بالفرار من كثرة الخوف، تاركة ابنتها في عربة الأطفال المجرورة، ما دفع السلطات إلى أخذها وتسليمها إلى إحدى الخيريات، وبعد تدخل العاملات الاجتماعيات، تحت إصرار محللة نفسانية إيطالية تم الاحتفاظ بالابنة في الخيرية، إلى حين تسليمها لأسرة ما، بحيث تدخلت فاعلة جمعوية لصالح الضحية

ورفضت حرمان الأم من ابنتها، التي أنجبتها خارج مؤسسة الزواج بعدما تأكدت من كونها لم تكن تسرق وإنما هربت بدافع الخوف.

كما ان الأمهات العازبات اللواتي يقتسمن نفس المعاناة في بلدان المهجر، بعدما وجدن أنفسهن مكرهات على الإنجاب خارج مؤسسة الزواج، ما يدفع الكثيرات منهن إلى الانحراف والإقدام على عدد من الممارسات التي تهدد استقرارهن مع فلذات أكبادهن.

والجدير بالذكر ان الامهات العازبات، لهن معاناة اخرى مع قنصليات المغرب بايطاليا، بحيث جميع اطفالهن يحرمون من جواز السفر، لأن كل طلب جواز سفر للأطفال يجب ان يكون ضمنه موافقة الاب عليه، وفي هاته الحالة يجدن أنفسهن في موقف حرج، الشيء الذي دفع العديد من الامهات العازبات يناشدن الجهات المسؤولة من اجل التدخل لإيجاد حل لهن مع قنصليات المملكة بايطاليا.

قاضية كندية ترفض الاستماع لمسلمة بسبب حجابها

في سابقة من نوعها، رفضت قاضية بمحكمة كيبيك الكندية، الاستماع لمواطنة كندية، بسبب حجابها الإسلامي المرفوض داخل المحكمة، حسب القاضية "إليانا مارينغو".

رانية العلول، ربة بيت، وأم لثلاثة أطفال، توجهت إلى المحكمة، لمحاولة استرجاع سيارتها المحتجزة من طرف مؤسسة التأمين العمومي للسيارات، المعروفة اختصارا ب (SAAQ)، وأثناء مثولها أمام القاضية، وجهت لها سؤالا مفاجئا، لا علاقة له بالقضية.

وسألت القاضية رانية بالقول "لماذا تضعين هذا المنديل على رأسك؟"، فجاء رد السيدة رانية كالآتي: "لأنني مسلمة"؛ لتعلن القاضية عن رفع الجلسة، ولم تعد إلا بعد ثلاثين دقيقة، وفق ما روته وسائل إعلام محلية.

القاضية مارينغو وجهت خطابها للسيدة رانية بعد عودتها، وأكدت لها بأنه "لا مكان للرموز الدينية داخل المحاكم، فهي لا توجد على الجدران، ولا على الأشخاص"، تقول القاضية الكندية.

وأضافت القاضية ذاتها "النص 13 من المسطرة التنظيمية لمحاكم كيببك، ينص على أن كل شخص يتقدم للمحكمة، يجب أن يكون مرتديا لباسا مقبولا، وفي نظري أنت لست كذلك"، تخاطب مارينغو السيدة رانية العلول.

واسترسلت القاضية قائلة "القبعات، ونظارات الشمس، مرفوضة داخل قاعة المحكمة، ولا أرى كيف يكون العكس بالنسبة للمنديل"، لتختم قولها بأنها "تريد تطبيق نفس القواعد على الجميع".

وبناء عليه، قررت القاضية مارينغو عدم الاستماع للسيدة رانية، ما دامت تحمل منديلا فوق رأسها، فيما رفضت السيدة رانية نزع حجابها الذي ارتدته منذ سنين عديدة، تفيد هاته الأخيرة.

عبد الرحمان عدراوي من كندا

موقع يمن 24

تقرير: الاعتداءات على مسلمي بلجيكا ترتفع بشكل قياسي

كشفت جمعية حقوق المسلمين في بلجيكا عن ارتفاع قياسي لعدد الاعتداءات على مسلمي البلاد خلال السنة الماضية، وقدرت الجمعية في تقريرها السنوي حول الإسلاموفوبيا عدد المسلمين الذي تعرضوا لاعتداء جسدي أو لفظي بأكثر من **696** مسلما وهو رقم جد مرتفع لم يسبق تسجيله.

وأفاد التقرير أن الشكايات التي تلقتها الجمعية عبر الهاتف تتعلق في المقام الأول باعتداءات في أماكن العمل (**183** شكاية)، تليها الاعتداءات داخل المؤسسات التعليمية من طرف الأساتذة في حق التلاميذ المسلمين (**141** اعتداء).

ونبه التقرير إلى أن بعض المؤسسات التعليمية أصبحت تفرض قيودا صعبة على التلاميذ المسلمين ولا تمنحهم نفس حقوق أقرانهم من البلجيكيين غير المسلمين.

وعكس سنة **2013** التي شهدت **17** حالة اعتداء على المسلمين، فإن سنة **2014** عرفت ارتفاعا قياسيا للاعتداءات اللفظية أو الجسدية في حق المسلمين، والتي تترجم بسلوكيات عنيفة في الشارع العام سواء تعلق الأمر بالضرب، أو

محاولة انتزاع الحجاب خصوصا في حق النساء البلجيكيات المعتنقات للإسلام حديثا.

وسجل التقرير أن ضحايا الاعتداءات فقدوا الثقة في قدرة المؤسسات الحكومية على حمايتهم، "وهو الأمر الذي يدفع العديد من الأشخاص المسلمين الذين تعرضوا لاعتداءات عنصرية إلى تجنب تقديم شكاوى لدى رجال الشرطة لأنهم يعلمون أن شكايتهم لن تجد آذانا صاغية".

واستدل التقرير على هذه الوضعية بكون **16** في المائة فقط من الشكايات حول الاعتداء ضد المسلمين هي التي يجري التحري حولها.

وتظهر الأرقام أن النساء المسلمات هن الأكثر تعرضا للاعتداء، إذ أن **73** في المائة من الشكايات التي تلقتها الجمعية هي شكايات لنساء تعرضن للاعتداء وخصوصا اللاتي يرتدين الحجاب، هذه الفئة الأخيرة تعتبر الأكثر تعرضا لسلوكيات عنصرية بنسبة **82** في المائة من مجموع الاعتداءات التي تعرضت لها النساء سواء في أماكن العمل أو الإدارات العمومية.

في المقابل فإن الأشخاص الذي يقومون بالاعتداء على المسلمين أغلبهم من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين **18** و**29** سنة، ويحمل جلهم الجنسية البلجيكية.

تقرير جمعية حقوق المسلمين البلجيكية يتقاطع في نتائجه مع تلك الصادرة عن مركز تكافؤ الفرص البلجيكي الذي أكد أن عدد الاعتداءات في حق المسلمين قد ارتفع خلال سنة **2014**، كما لاحظ المركز استفحال ظاهرة التمييز ضد المسلمين في بلجيكا خصوصا في مجال الإعلام وسوق الشغل حسب الدراسة التي أنجزها المركز.

هسبريس – أيوب الريمي

الأربعاء 29 أبريل 2015

تقرير أوروبي: زيادة نسبية في جرائم العنصرية والإسلاموفوبيا

مفكرة الإسلام : ذكرت دراسة أوروبية أن عدد الجرائم العنصرية، التي سجلت في معظم دول الاتحاد الأوروبي عام **2013**، وصلت إلى **47210** جريمة، حيث تقول المنظمات المعادية للعنصرية إن هذه الهجمات هي "رأس جبل الجليد"؛ لأن هناك الكثير من الحوادث العنصرية لم تبلغ الشرطة عنها.

وبحسب الدراسة، التي أعدتها الشبكة الأوروبية ضد العنصرية، فإن النساء المسلمات والأوروبيين من أصول أفريقية والغجر هم الأكثر عرضة للجرائم العنصرية.

ويعد هذا التقرير، الأول من نوعه، الذي قام بفحص جرائم العنصرية، واعتمد على أبحاث المجتمع المدني، بخلاف التقارير التي تقوم بها الحكومات، ولهذا نظمت الدراسة الحالية الشبكة الأوروبية ضد العنصرية "إينار"، ولم تنشر سوى ثلث دول أوروبا تقارير عن الجرائم العنصرية في عام **2013**.

وبحسب التقرير، الذي نشرت بعض نتائجه مجلة "نيوزويك"، فإن هناك زيادة نسبية في العنف خلال الأعوام الماضية. ويربط التقرير العنف بالأزمات الاقتصادية، وزيادة نمو الأحزاب اليمينية المتطرفة، وخطاب الكراهية والخطاب السياسي.

وتشير المجلة إلى اعتقاد "إينار" أن الأرقام لعام **2014**، ستظهر معدلات أعلى من الجرائم العنصرية؛ بسبب الحرب في غزة وهجمات "شارلي إيبدو" في باريس بداية العالم الحالي.

ويبين التقرير أن جرائم العداء للإسلام "إسلاموفوبيا" زادت بشكل كبير في فرنسا وإنجلترا وويلز، ومن بين أشد النتائج المثيرة للرعب هي أن النساء المسلمات هن أكثر عرضة لهذه الهجمات، وعادة ما تكون جرائم إسلاموفوبيا جسدية وعنيفة.

وتذكر المجلة أنه بحسب مركز "جميعا ضد الإسلاموفوبيا في فرنسا"، فإن نسبة **78%** من ضحايا الإسلاموفوبيا عام **2013** هن من النساء.

ويعطي التقرير مثالا عن شابة مسلمة عمرها **21** عاما، كانت حاملا في شهرها الرابع عندما هوجمت بسبب حجابها في حي أرجينتيلو في العاصمة باريس، وقد أسقطت حملها فيما بعد بسبب الهجوم، بحسب ما أفاد محاميها.

وتوضح المجلة أن المهاجمين قاما بركل المرأة في بطنها، وحاولا نزع حجابها، وقصا شعرها فيما بعد، وفي أثناء ذلك كانا يوجهان شتائم معادية للمسلمين.

ويلفت التقرير إلى مشكلة التقليل من جريمة العنصرية، حيث تحاول السلطات التخفيف من عامل العنصرية في الجريمة، وتتم محاكمة الجناة على

أفعال أقل. ويقول التقرير إن مثل هذه الممارسات تحصل بالتحديد في النمسا وبلغاريا وقبرص وإستونيا وفرنسا وألمانيا.

وتنقل المجلة عن نائب مدير "إينار" كلير فرنانديز، قولها: "إن ما هو مثير للصدمة الطريقة التي لا تأخذ فيها الدول الأعضاء العنصرية في الجريمة بعين الاعتبار". وتضيف فرنانديز أن "العامل العنصري يختفي بشكل تام، وهو ما يعد مشكلة، ونحن ندعو في هذه الحالة إلى تكثيف الجهود لتدريب الشرطة".

ويقدم التقرير، الذي ترجمت نتائجه "عربي21"، قصة مهاجر نيجيري يقيم في اليونان، وقد تعرض للاعتداء والسرقة. وعلى الرغم من أن الشرطة عثرت على ملصقات للحزب المتطرف "الفجر الذهبي" والنازيين الجدد، إلا أنها سجلت الحادث باعتباره سرقة **300** يورو من مهاجر نيجيري.

وتفيد المجلة بأن التقرير لاحظ زيادة في الجرائم المتعلقة باللاسامية في خمس من أصل **26** دولة، وهي الدانمارك وألمانيا وهنغاريا وهولندا والسويد. فيما ذكر التقرير أن معظم الجرائم التي اتسمت بالعنف الجسدي حصلت في أستونيا واليونان وإيطاليا وبولندا والسويد وبريطانيا، وكان أغلب الضحايا هم أبناء الأقليات الأفريقية والآسيوية.

وتختم "نيوزويك" تقريرها بالإشارة إلى أن الآسيويين من شبه القارة الهندية في لندن يعانون من أعلى نسبة في كونهم ضحايا. وفي السويد سجلت **980** جريمة

عداء للأفارقة، وسجلت الشرطة حالات متعلقة بالإسلاموفوبيا بزيادة 69% في الفترة ما بين 2009 إلى 2013، وهناك حالات تحريض وعنف ضد الغجر في معظم دول الاتحاد الأوروبي.

مفكرة الإسلام :الخميس 07 مايو 2015-

مهاجر مغربي في والبة الأندلسية

في صباح هذا اليوم، كنت على موعد مع السيد (م.ش) وهو عامل مغربي مهاجر، يعيش ويشتغل في مدينة والبة **huelva** شرق إقليم الأندلس بجنوب اسبانيا. وكان حديثنا يدور حول أوضاع المغاربة الاجتماعية في هذا البلد. ولقد أخبرني هذا العامل المهاجر أن الوضعية الاجتماعية والنفسية للعمال المغاربة المقيمين في إسبانيا، تعتبر وضعية مأساوية على جميع المستويات؛ حيث إن البطالة منتشرة انتشارا ذريعا بينهم، مما يؤثر سلبا على حياقم الأسرية. كما أن معظم الأبناء لا مستقبل لهم، وسيخلفون آباءهم في البطالة والبؤس والتهميش، ذلك أن أغلبهم لا ينهي دراسته الثانوية، بله ولوج أبواب الكليات. ويتعاطى كثير منهم المخدرات، كما يمارسون السرقة وأنواعا من الجرائم مما يجعل السلطات تزج بهم في السجون. وهذا أمر معروف تتداوله وسائل الإعلام الإسبانية.

كما أخبرني أن الأسر المغربية المقيمة في إسبانيا، تعرف تصدعا خطيرا، فيما يخص العلاقة بين الزوجين، أو بينهما وبين الأبناء الذين يغلب عليهم سلوك التمرد والثورة على قيم الأبوين.

وحكى لي هذا المهاجر أمرا غريبا وقع لابنته ثريا في المدرسة، أثناء قيام التلاميذ بمادة الرسم. ذلك أنه استدعي ذات يوم من طرف معلمة ابنته، التي أخبرته أن ثريا وحدها امتنعت عن رسم الكنيسة؛ موضوع مادة الرسم. ورغم إلحاح معلمتها فإنها لم تستجب، وقد رسم الكنيسة كل التلاميذ الذين هم من أصول عربية. وقالت المعلمة مستفسرة: "ما الذي جعل ابنتك تمتنع عن هذا الرسم ؟ " فأجابها السيد (م.ش): لا أدري". فأردفت قائلة: "لعلك أسمعتها كلاما قبيحا عن الكنيسة" ؟! فقال : "هذا ممكن، وهو موقف قد يصدر من مسيحي فيما يتعلق بمسجد المسلمين".

يستفاد من هذا الحوارالقصير، أن التعليم في أوربا الذي يقوم أساسا على مبادئ العلمانية، يصر كثير من أعضاء أسرته على القيام بوظيفة التنصير وزعزعة العقيدة الأسلامية في قلوب أولئك التلاميذ، سيما إذا كان بعض هم أو أغلب تلاميذ القسم من أصول عربية.

ومن ناحية أخرى، كثيرا ما تنفعل الزوجة المغربية وتثور على زوجها لعلمها أن السلطات الإسبانية تحميها وتقف في جانبها ولو كانت ظالمة. وإذا ما ضربها زوجها أو هم بذلك أو هددها... واستدعت الشرطة، حينذاك يفرق بينهما، وتمكث الزوجة في البيت. أما الزوج فيمنع من الوصول إلى البيت أو الاتصال بزوجته وأولاده.

وأكد لي السيد (م.ش) أن كثيرا من المغربيات انفصلن عن أزواجهن بطريقة أو أخرى، وتزوجن برجال إسبانيين. وهذه ظاهرة اجتماعية شائعة في إسبانيا، مما يدل على جهل أغلب المغربيات المقيمات في هذا البلد، وعلى انسلاخهن تدريجيا من مبادئ الدين والشريعة الإسلامية.

كما لاحظ، من جهة أخرى، أن عددا هائلا من النساء المغربيات يعملن في قطاع الفلاحة. ثم لما ينتهي موسم هذا القطاع، يلتجئ بعضهن إلى البحث عن العمل كخادمات في البيوت، أو الإشراف على العجزة...بل كثير منهن يحترفن البغاء والدعارة. إن هذه المظاهر الفظيعة والمخزية جعل الإسبان ينظرون إلى المغاربة المقيمين عندهم نظرة احتقار وذل ومهانة.

ويتعجب السيد (ش.م) لهؤلاء الرجال، بل الذكور، الذين سمحوا لزوجاتهم أو بناتهم أو أخواتهم، بمفارقة الأهل والوطن، والذهاب للعمل في بلاد أجنبية تحارب الشرف والمروءة، وتحتقر المسلمين، وتعادي دينهم وهويتهم.

إن هذا العمل الشنيع الذي أقدم عليه هؤلاء السفهاء، لا يقبله عقل ولا شرع، بل تنفر منه الفطرة الإنسانية. إن هذا الذي أذن لامرأته أو ابنته أو أخته، كي تسافر إلى بلاد النصارى والعلمانيين والملاحدة، لتشتغل في الفلاحة أو البيوت أو المقاهي والحانات، أو تمارس البغاء، كل ذلك من أجل الدنيا وجمع المال، لهو إنسان سفيه لا عقل له ولا مروءة. كما أنه جاهل جشع، طامع في

حطام الدنيا، ولو على حساب الدين والكرامة والعرض. إنه خسيس وساقط ووضيع. وجمع من الدناءة والسفالة والحقارة والنذالة، ما جعله يفتخر بامرأته أو ابنته، ويتعبر ذلك شجاعة وبطولة، علما بأن الأوربيين قد داسوا كرامتها وأذلوها واستعبدوها.

وإني لأستغرب كيف انحطت القيم الدينية والخلقية في قلوب كثير من المغاربة. وكيفتولد عن هذا الأمر وجود صنف من الرجال والنساء رضوا بأن يصبحوا عبيدا محتقرين ومهانين في بلاد النصارى.

إن هذا الوضع الاجتماعي والتربوي الخطير الذي تحياه كثير من الأسر المغربية، يدل على وجود خلل فظيع في التصور العقدي. وتردي مخيف على مستوى الإيمان والأخلاق. ويبدو أن هذه المظاهر الاجتماعية الخطيرة، إضافة إلى العوامل الداخلية، قد أسهم في إيجادها ذلك العمل التخريبي والإفسادي الذي تسهر عليه قوى الشر في العالم، مستهدفة كل القيم الدينية والأخلاقية الإسلامية.

وقد يقول قائل معترضا: "إن هذا المغربي الذي وصفته بالذل والمهانة، لأنه ارتكب جريمة عندما أرسل امرأته أو شجع ابنته على السفر إلى أوربا للعمل فيها، لم يفعل ذلك اختيارا، وإنما أكره عليه بسبب الفقر."

أقول لهذا المعترض: "هل المغرب لا يوجد فيه رزق؟ والله يقول: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها" (هود 6). ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقول: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا" (رواه الترمذي). كما أن هذا الذي بعث امرأته للعمل ذليلة ومحتقرة في بلاد النصارى، قد تجده لدناءته وخسته وخبث معدنه، يقضي معظم أوقاته بين المقاهي، أو يتسكع في الشوارع والأزقة، ينتظر المال الذي ترسله إليه تلك الضحية الغبية، كي يطعم نفسه وأولاده. أي حمق هذا، وأي سفاهة وعار؟؟

وفرغ من تحريره

بتطوان حفظها الله في أواخر شوال **1436**- غشت **2015**

أبو عبد الرحمن عبد الله الشارف

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث:

قائمة المراجع

محمود خداقلي بور وفهيمة وزيري: الإسلام والمسلمون في فرنسا " ترجمة الدكتورة دلال عباس ...للطباعة والنشر / بيروت 1425 - 2004.

1 جعفر ابن ادريس الكتاني المغربي (المتوفى سنة1322 هـ)، "الدواهي المدهية للفرق المحمية، بحث في السياسة الشرعية"، تحقيق محمد حمزة الكتاني، منشورات دار الكتب العلمية بيروت، ط. 2، 1426 هـ 2005

1- د. الصادق عبد الرحمن الغرياني؛ "مدونة الفقه المالكي وأدلته"؛ مؤسسة الريان، بيروت، ط1، 1423هـ-2002م،

د. كنزة الغالي "نساؤنا المهاجرات في إسبانيا "كتاب الجيب" عدد 42، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2004.

1 د. محمد الكتاني : "مشكلات الهجرة وانعكاساتها في المجتمع المغربي"، مداخلة في "ندوة هجرة المغاربة إلى الخارج"، أعدها الأكاديمية المغربية سنة 1999، مطبعة المعارف-الرباط، 2000،

سالم بن عبد الغني الرافعي؛ أحكام الأحوال الشخصية للمسلمين في الغرب، ط 1 الرياض دار الوطن للنشر 1422هج، 2001م.

التيجاني بولعواني؛ "المسلمون في الغرب بين تناقضات الواقع وتحديات المستقبل"، أفريقيا الشرق؛ الدار البيضاء المغرب 2010، .

مجموع فتاوى ابن عثيمين – فتوى رقم 388

المجلة الفرنسية **Le Nouvel Observateur , N° 941, novembre 1982 Paris France.**

المواقع الالكترونية:

موقع هسبريس.

موقع مفكرة الاسلام

موقع يمن 24.

موقع هبة بريس


مطبعة تطوان
Imprimerie Tétouan

إن السنوات التي كنت خلالها تبذل مجهودات كبيرة في تنشئتهم، ورعايتهم، وتفكر في حياتهم ومستقبلهم بعد العودة إلى الوطن الحبيب، هي السنوات نفسها التي، على حين غفلة منك، صاغت شخصيتهم، وغذتها بعناصر ومكونات الثقافة الأوربية، وأرضعتهم لبن التربية العلمانية، وبذرت في قلوبهم بذور المحبة للوطن الذي نشؤوا فيه، وترعرعوا في أحضانه. فكيف يغادرونه إلى أرض لم نشؤوا فيها ولم يألفوها، ولا يتكلمون لغتها إلا كلمات متقطعة، أو جملا مزركشة، وينفرون من عاداتها وتقاليدها، بل يستغربون من أسلوب حياة أهلها...

ما كنت تحسب قبل عقود مضت، عندما غادرت وطنك الحبيب أن الأيام ستباغتك بهذه الدواهي المدهية، والنوائب المبكية، والشدائد والنكبات وقوارع الدهر: أحلامك لم تتحقق، وأبناؤك تمردوا عليك، وسخروا من أفكارك وتصوراتك، والبلد الأوربي الذي طلبك واستقبلك، ودعاك لبناء طرقه، والعمل في الأعمال الشاقة، تنكر لجميلك، وقلب لك ظهر المجن، بعد أن استغل فتوتك وشبابك، ثم أخذ منك أبناءك قسرا وقهرا، وأنت لا تستطيع فعل شيء، كأنك مكتوف الأيدي.

إن الميراث الديني، والثقافي، والحضاري، الذي انتقل إليك عن طريق الآباء والأجداد، والذي شكل عناصر ومقومات هويتك، وشخصيتك، وكيانك، تجمد في عروقك وأوصالك، لأنك لم تستطع نقله وإيصاله إلى أبنائك، بسبب انقطاع التواصل بينك وبينهم، ذلك الانقطاع الذي نتج عن اختلاف التربتين والنشأتين؛ إذ أن وحدة التربة والنشأة شرط أساسي وجوهري لنقل الميراث.

عندما تجمد الميراث في أوصالك، وشعرت بنهايتك، حيث لم تتحقق سيرورتك واستمراريتك الوجودية في شخص أبنائك، أورث ذلك حزنا عميقا في قلبك، تولد عنه طائفة من الهواجس والوساوس، وأنواع من المخاوف والخيالات المؤذية، والتي كثيرا ما تتعب المصابين بالأمراض النفسية.

لقد أكدت الدراسات النفسية والاجتماعية قديما وحديثا، أن "الإنسان ابن بيئته"، فمن نشأ وترعرع وكبر في بيئة معينة، فهي أمه ومرضعته وملهمته، وبها يتأثر، ولها يخضع، وبأوامرها يأتمر، وبأحلامها يعيش، وبثقافتها يتنفس.